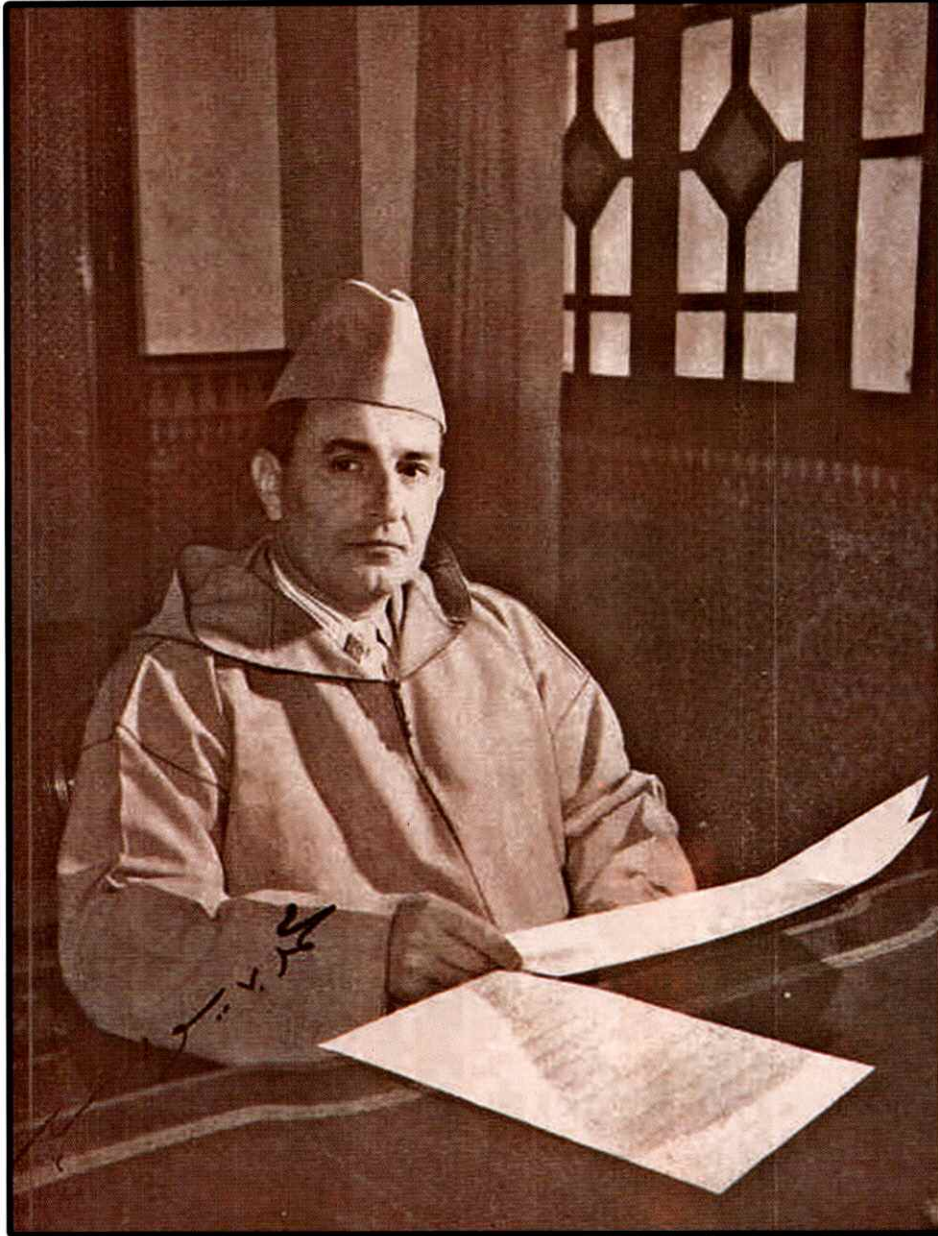


دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والفكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية



السنة الثالثة والستون - العدد 433 ذو الحجة 1441 هـ / غشت 2020 م



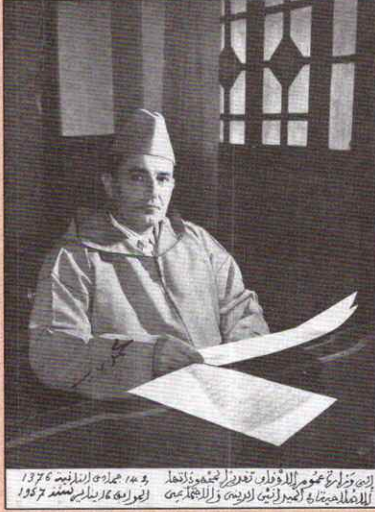
عدد خاص بذكرى ثورة الملك والشعب

433

دعوة الحق

مجلة شهرية تُعنى بالدراسات الإسلامية وبشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية بالمملكة المغربية

السنة الثالثة والستون - العدد 433 ذو الحجة 1441هـ / غشت 2020م



أسسها
جلالة الملك المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه
سنة 1376هـ / 1957م

”... ولذلك سرنا أن تتولى وزارة الأوقاف إصدار مجلة جامعة
تُعنى بصحة خاصة بنامية الإصلاح الديني، كما نعالج
مختلف الشؤون الاجتماعية والثقافية، ولنا وكسيد الأمل في
أن يلتفت مولانا دُعالة الفكر والثقافة والإصلاح في هذه
البلاد وغيروا لتؤدي مهمتها خير أداء.
وعسى أن تسلك مجلة ”دعوة الحق“ سبل النجاة والتوفيق“.

من الكلمة التي وجهها المغفور له جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957

في 15 جمادى الأولى 1376هـ الموافق لـ 13 يونيو 1957م
إلى مجلة دعوة الحق بمناسبة صدورها في شهر يوليوز 1957م

- الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر.
- ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.
- ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

العنوان : مديرية الشؤون الإسلامية، وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية المشور السعيد - الرباط

الموقع الإلكتروني : www.daouatalhaq.ma - البريد الإلكتروني : daawatalhak@mhaj.gov.ma

هاتف التحرير : 05 37 76 59 05 - هاتف مدير المجلة : 05 37 66 06 74

فاكس : 05 37 76 17 21

التوزيع : هاتف وفاكس : 05 37 76 32 10

الحساب البنكي : القرض الفلاحي - وكالة الحسابات الكبرى - الرباط :

RIB : 225-810-0195092946510102-88

الاشتراكات في المجلة : الاشتراك التشجيعي : 500 درهم - المملكة المغربية : 150 دھ

الخارج : 300 درهم ثمن العدد : 15 دھ

رقم الإيداع القانوني : 1981/3

الرقم الدولي : 1981PE0003

الإخراج الفني والطباعة : مطبعة الأمانة - الرباط

مدير المجلة :

الأستاذ أحمد قسطاس



رئيس التحرير :

الأستاذ عبد الحميد العلمي



أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله وأيده





صاحب السمو الملكي الأمير السعيد مولاي رشيد حفظه الله



افتتاحية

يحتفل الشعب المغربي هذا السنة بالذكرى السابعة والستين لثورة الملك والشعب، وهي مناسبة تذكّر بما تفتضيه روايته البيعة الشرعية بين أمير المؤمنين والمبايعين، وبإحيائها يتجدد العهد بين الملك وبين الشعب، وقد أراها أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس نصره الله ثورة متجددة ومتواصلة يعملها مشعلها جيل عن جيل، فال حفظه الله: «وقد صدق جدنا المغفور له الملك محمد الخامس لما قال: عندما قال إننا رجعنا من الجلاء الأصغر لخوض الجلاء الأكبر»

ولأمير المؤمنين والشعب المغربي موافق تذكّر في خوض هذا الجلاء في مختلف المجالات عبر عنها بقوله: «وإننا نتطلع أن يشكل النموذج التنموي، في صيغته الجديدة، فاعلة حلبة، لانبثاق عهد اجتماعي جديد، ينخرط فيه الجميع: الدولة ومؤسساتها، والقوى الحية للأمة، من فضاء خاص، وهيئات سياسية ونقابية، ومنظمات جمعوية، وعموم المواهبين».

وبهذا المناسبة يسعد إدارة مجلة الدعوة الحق أن تقي هذا الذكرى العزيزة بمفالات عن هذا المناسبة الغالية على المواهبين، كما تنتهز الفرصة أن تسأل من الله العلي العظيم أن يرحم الملك المجاهد محمد الخامس وأن يسكنه فسيح جناته، وأن يرحم الملك الحسن الثاني بواسع رحمته ويرحم جميع شهدائنا الأبرار، وأن يحفظ مولانا أمير المؤمنين صاحب الجلالة الملك محمد السادس بما حفظه به الذكر الحكيم، والحمد لله رب العالمين.

مفالات العلم

السياق التاريخي لثورة الملك والشعب المفضية إلى استقلال المغرب

ذ. أحمد الأزمي

أستاذ باحث في التاريخ الحديث والمعاصر
جامعة سيدي محمد بن عبد الله - فاس

يعد الخطاب التاريخي البليغ الذي ألقاه المغفور له محمد الخامس بمدينة طنجة يوم 10 أبريل 1947م منعطفاً حاسماً في تاريخ الحركة التحريرية المغربية، ذلك أن السلطات الاستعمارية الإسبانية والفرنسية أدركت مغزى الزيارة الملكية لمدينتي طنجة وتطوان، وفهمت أبعاد الخطاب التاريخي ومراميه ومقاصده، وكان طبيعياً أن يحدث الصراع ويشتد بين السلطات الاستعمارية والعاهل المغربي من جهة، والسلطات الاستعمارية والحركة الوطنية من جهة أخرى.

ومن عوامل النجاح الحاسمة في ثورة الملك والشعب أن جلالة الملك المغفور له محمد الخامس كان في طليعة قادة الحركة التحريرية التي استمدت من خصاله النضالية، ومن مواقفه الثابتة وصموده الدائم مقوماتها، وشرعية نضالها. فقد ارتبط نمو هذه الحركة وتصاعد نشاطها وتطور أسلوب كفاحها بمواقف وسلوك الملك الراحل تجاه السلطات الاستعمارية والمتعاونين معها، من ضعاف الضمائر وأصحاب الامتيازات والأطماع من المغاربة.

فما هو السياق التاريخي للعوامل التي تفسر نجاح ثورة الملك والشعب، وانتصارها على جيوش المستعمر المدججة بالأسلحة النارية المتطورة ليعود من المنفى مكلاً بالنصر؟

1 - محمد زنيبر، صفحات من الوطنية المغربية، الدار البيضاء 1990م، ص 102 إلى 104.

I. تعاون الملك محمد الخامس مع الحركة الوطنية وقيادته لها.

بعد خطاب مدينة طنجة المشار إليه سابقا، خاب أمل السلطات الفرنسية بالمغرب عندما أدركت أن الملك الشاب محمد الخامس قدس الله روحه، والذي كانت تتوسم فيه الانقياد لرغباتها، هو الذي كان يحمل راية الكفاح من أجل الاستقلال، ابتداء من سنة 1930م، ولم يخطر ببالها قط أنه سيصير زعيماً سياسياً ماهراً في ابتكار أساليب النضال بمساعدة شبلة وولي عهده أنذاك مولاي الحسن، وتفسير ذلك هو أن طبيعة تكوين شخصية محمد الخامس الوطنية العربية الإسلامية لم تكن تسمح له بسلوك وسيلة أخرى في التعامل مع المستعمر غير مبدأ الوفاء لشعبه الذي تربطه به بيعة شرعية، وهي البيعة التي كافح من أجل البرهنة على تمسكه والتزامه بها، من خلال مواقفه النضالية المتعددة، كما شهد له بذلك القاضي والداني، داخل الوطن وخارجه، وفي مقدمة كل هؤلاء رجال الحركة الوطنية المغربية²، الذين أبلوا البلاء الحسن في توعية الشعب المغربي بقضيتهم المصيرية، ليلتف الجميع حول الملك محمد الخامس كقائد لثورة الملك والشعب وضمان لنجاحها.

لقد أدركت الحركة الوطنية دورها في هذا الظرف الحاسم، ووعت كل الوعي مسؤولياتها التاريخية، وما يتطلبه الموقف الواعي من وحدة الصف، وتوحيد الكلمة، والالتفاف حول عاهل البلاد رمز السيادة الوطنية والشرعية الدينية³.

وكانت الجبهة الوطنية قد تكونت في نهاية سنة 1951م، وضمت الهيئات السياسية الأربعة المعروفة في ذلك الوقت، وهي حزب الإصلاح الوطني وحزب الوحدة المغربية الخاضعة للنفوذ الإسباني، وحزب الاستقلال، وحزب الشورى والاستقلال في المنطقة التي كانت خاضعة للنفوذ الفرنسي. هذه الجبهة الوطنية ساعدت كثيرا على تعبئة الجماهير، تعبئة هامة.

ومما يبرهن على الآمال التي كان يعلقها رجال الحركة الوطنية على محمد الخامس كملك للبلاد، عقدتهم العزم على الاحتفال بذكرى عيد العرش مهما كلفهم ذلك من ثمن⁴ بمناسبة حلول

2 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة الرسالة، الرباط، 1956م، ص 199.

- محمد حسن الوزاني، حرب القلم، بيروت 1981م، ج 1، ص 20.

3 - علال الفاسي، نداء القاهرة، الرباط 1959م، ص 3 وما بعدها.

4 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، م.س، ص 143.

ذكراه في نونبر 1952م. وهو العيد الذي يصادف مرور ربع قرن على جلوس محمد الخامس على عرش أسلافه، وقد حل والحركة الوطنية بكل فصائلها ملتفة حول العاهل المناضل الذي أبى إلا أن يكون في طليعة الكفاح التحرري لقيادة مسيرته. وقد انتهزت الحركة الوطنية هذه الفرصة لتعبئة الجماهير الشعبية للاحتفال بهذه الذكرى احتفالاً متميزاً فائق الحفاوة، تظهر من خلاله للمستعمر وأعدائه، مدى تعلق الشعب بعاهل البلاد الذي يصرف كامل اهتماماته من أجل استعادة حقوق شعبه وصيانة كرامة وطنه⁵. وكالمعتاد في مثل هذه المناسبة يلقي ملك البلاد خطاب العرش، وهو الخطاب الذي جاء "جامعاً، يعد أكمل وأهم ما ألقاه من خطب في الفترة التي سبقت استرجاع الاستقلال. تحدث فيه عن كل شيء: عن الديمقراطية، والحريات الفردية والجماعية والحقوق النقابية، والتعليم والاقتصاد، وتطور المرأة⁶. ولما استعرض جلالته العلاقات المغربية الفرنسية، انتقد الحماية نقداً مرّاً وشبهها تشبيهاً لا يخلو من سخرية، بقميص جعل لطفل صغير، فكبر الطفل ونما وترعرع، وبقي القميص على حاله"⁷.

بهذا الخطاب، تيقنت السلطات الاستعمارية أنها فشلت في سياستها المتبعة اتجاه الملك محمد الخامس التي تجلت في ممارسة ضغوطاتها المختلفة عليه، ليتنكر لحقوق شعبه، وليتبرأ من قادة الحركة الوطنية، لعزله عن الجماهير الشعبية الملتفة حوله والملتحمة به، ليصبح بعد ذلك أداة طيعة في يد السلطات الاستعمارية⁸، ولم يكن تصرف العاهل المغربي بالشكل الذي تصرف به، إلا نتيجة وعيه بالدور الريادي الذي يقوم به رجال الحركة الوطنية إلى جانبه. ومن المواقف الحاسمة التي أبداهها هذا الملك لدعم زعماء الحركة الوطنية:

1- المطالبة بالاستقلال: كان أهم حدث وظفه جلالته سياسياً بذكاء، هو نزول قوات الحلفاء بالمغرب، وذلك باتفاق مع أهم زعماء الحركة الوطنية. وبمناسبة انعقاد "مؤتمر الدار البيضاء" في شهر يناير 1943م، الذي شارك فيه كل من الرئيس الأمريكي "روزفلت" والوزير الأول البريطاني

5 - زكي مبارك، محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب، منشورات فيديرانت، الرباط 2003م، ص 131.

6 - عبد الوهاب بن منصور، الحسن الثاني، حياته، جهاده ومنجزاته، الجزء الأول، المطبعة الملكية، الرباط 1969م، ص 145.

7 - نفسه.

8 - زكي مبارك، م.س، ص 131.

"تشرشل" والجنرال الفرنسي "دوكول" قام جلالته بالمساعي الضرورية لحضور هذا المؤتمر، وعندما اجتمع جلالته بالأقطاب المذكورة، لم يترك الفرصة تمر دون أن يعبر للرئيس الأمريكي عن رغبة بلاده الملحة في أن تحصل على استقلالها. وكان موقف الرئيس الأمريكي إيجابياً، بعد أن وعد المغفور له محمد الخامس بأن الولايات المتحدة ستقف إلى جانب المغرب لاسترجاع حريته بعد نهاية الحرب⁹.

2- الاجتماع سراً بمخبأ¹⁰: تم الاجتماع خلال شهر مايو 1943م في مخبأ خاص داخل القصر الملكي، وشهد المخبأ أكبر تحالف وقع بين الملك والنخبة الوطنية من أبناء الشعب، ولم تبدأ المحادثات إلا بعد أن أقسم الجانبان أمام المصحف على الإخلاص في هذا العمل، وكتمان السر، وخدمة الوطن. وبذلك يمكن القول إن هذا الاتصال كان انتصاراً للفكرة الوطنية، واعتبره الملك أكبر نصر لأنه وحد جهوده مع الفئة المخلصة من أبناء شعبه.

3- عريضة الاستقلال: نشأ حزب الاستقلال على إثر انعقاد مؤتمر بالرباط في 11 يناير 1944م، ويرى الأستاذ علال الفاسي أن الأمة كلها تكتلت في هذا الحزب الذي كان جلالته الملك محمد الخامس يتتبع خطوات تأسيسه عن قرب¹¹، واعترافاً من زعماء الحركة الوطنية بالدور الريادي الذي قام به محمد الخامس في قيادة معركة الحرية والاستقلال ضد المستعمر، فإن البند الأول من هذه العريضة طالب باستقلال المغرب ووحدة ترابه، تحت ظل صاحب الجلالة ملك البلاد المقدي سيدنا محمد بن يوسف نصره الله وأيده¹².

4- السفر إلى طنجة ودلالته: تم هذا السفر يوم 10 أبريل 1947، وكان له من الدلالات والانعكاسات ما عاد على القضية الوطنية بالخير العميم، كما أشرنا إلى ذلك في مستهل هذا العرض.

5- رفض التبرؤ من حزب الاستقلال، عندما طلب منه الجنرال "جوان" ذلك في 26 يناير 1951م¹³.

II. تخطيط فرنسا لعزل محمد الخامس ونفيه.

أمام هذا الموقف المتصلب للعاهل المناضل، الذي أصبح في طليعة القيادة الوطنية المناوئة للاستعمار، بدأت الإدارة الفرنسية في كل من الرباط وباريس بتنفيذ مؤامرة عزل محمد الخامس عن

9 - Hassan II, la mémoire d'un roi, entretiens avec Eric Laurent, Paris, 1993, p.16-17.

10 - عبد الكريم غلاب، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب، الدار البيضاء 1976م، ج 1، ص 110-111.

11 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية، م.س، ص 246.

12 - نفسه.

13 - Ahmed Abdeslam Bekkali, Mohamed V, premier résistant, Imprimerie Dédico, Salé, (S.D), P.21.

العرش ونفيه خارج الوطن. وهي محاولة سبقت أن أقدمت عليها سنة 1951م، عندما بلغ غيظ فرنسا مداه، بسبب استخدام محمد الخامس لسلاحه الناعم القاضي بالإضراب عن تشغيل الخاتم، وهو أمر أثر تأثيراً بالغاً في المقيمة العامة بالمغرب، عندما فشلت في استدراج جلالته لتوقيع ظهائر تتعلق بإدماج المغرب في إطار "الاتحاد الفرنسي" وإقناعه بضرورة التبرؤ من حزب الاستقلال وطرده معاونه ومستشاريه من القصر والحكومة، على أن تعين له الإقامة العامة بدلاً منهم. فكان جواب الجنرال "جوان" على موقف محمد الخامس النضالي هذا يوم 16 يناير 1951م، هو تهديد جلالته، وخيره بين أمرين: إما الاستجابة للمطالب الفرنسية وإما الخلع عن العرش، فرفض محمد الخامس من جديد، فما كان من "جوان" إلا أن أصدر أوامره إلى الباشا الكلاوي ورجال القبائل بالزحف على الرباط وفاس¹⁴. ورغم أن محمد الخامس كان مستعداً لجميع الاحتمالات فإنه رأفة برعيته هادن الفرنسيين مؤقتاً إلى أن اتخذت المسألة المغربية بعداً دولياً على المستوى الإعلامي، فأشيع في العالم الإسلامي أن الجنرال "جوان" يضغط على الملك محمد الخامس ليتنازل عن العرش، فارتفعت أصوات الاحتجاج¹⁵.

وعندما رأت فرنسا زيف ادعاءاتها أمام العالم، وافترض أمرها بخصوص الاتهامات الباطلة التي تكيلها الإقامة الفرنسية بالمغرب لملك البلاد، عمدت لإنقاذ سمعتها، إلى التضحية بالجنرال "جوان"، وتعويضه بالجنرال "كيوم" كمقيم عام جديد في شهر يوليوز 1951م، غير أن هذا الأخير كان أسوأ من سلفه، إذ في عهده تم تنفيذ المخطط الإجرامي القاضي بعزل السلطان ونفيه، لكن قبل الحديث عن هذا النفي، من المفيد الإشارة ولو بإيجاز لأهم ما ميز حكم "كيوم" قبل إقدامه على تنفيذ جريمته.

من بين ما ميز فترة حكم "كيوم"، كمقيم عام فرنسي بالمغرب، حوادث مدينة الدار البيضاء التي جرت أيام 7 و8 دجنبر 1952م لتستغلها السلطات الاستعمارية للشروع في تنفيذ مخططها التأمري¹⁶، فعمدت إلى استئصال الحركة التحررية والقضاء على العناصر الوطنية النشطة، فاستعملت كل أنواع الفتك والاضطهاد والتخريب والاعتقال والقمع وانتهاك الحريات، كما

14 - Hassan II, le Défi, Paris 1970, pp. 54-55.

15 - حلمي محمد عيش، المغرب الأقصى كما رأيته، القاهرة، دون تاريخ، ص 25-26.

16 - زكي مبارك، م.س، ص 132.

اعتقلت قادة الحركة الوطنية وكل العناصر الحية والنشيطة في كل أنحاء المغرب. وبذلك ظن الجنرال "كيوم" أن الجو خلا له من "المشاغبين"¹⁷ نهائياً، وأنه سينجح فيما فشل فيه "جوان"، وسيتمكن من إيقاع الملك في الشرك الذي نصبه له باسم التعاون مع فرنسا، أي أن محمد الخامس سيوافق إما بالترغيب أو بالتهديد على مبدأ "السيادة المشتركة" لفائدة الفرنسيين، وطبعاً فقد كان موقف جلالته هو الرفض التام لكل تواطؤ أو تعاون مع الإقامة العامة على حساب الحقوق الثابتة للأمة المغربية وسيادتها.

وأهم شيء يمكن استنتاجه من هذا الموقف المتأزم بين الإقامة العامة الفرنسية والقصر الملكي، أن الملك محمد الخامس فضل الانخراط في المصير الذي ناله المخلصون من أبناء شعبه، فلم يقيم للتهديدات الفرنسية وزناً. وظل متشبثاً بمطالب الشعب المغربي المشروعة والعادلة. فلما قدم الجنرال "كيوم" لإرغامه على التنازل عن عرش أسلافه، أجابه الملك قائلاً ما يفيد أنه ليس ملكاً بإرادة فرنسا، ولا فرنسا منتّ عليه بالملك، إن الملك أمانة وضعها شعبه في عنقه، وشعبه هو الذي يستطيع أن يزيلها من عنقه، وأن يسترد هذه الأمانة منه، وأنه واثق أن شعبه لا يفكر ولا يرغب في ذلك¹⁸.

وبما أن الفعل يتبعه رد الفعل، والاستفزاز يقابل باستفزاز أقوى، وبما أن الضغط يولد الانفجار، وبما أن أخبار التضييق على ملك البلاد الشرعي والزج بقيادة الحركة الوطنية في السجون سواء في عهد المقيم "جوان" أو "كيوم"، كانت تصل تباعاً إلى أذهان الشعب المغربي، فإن وتيرة العنف ضد المستعمر في عهد الجنرال "كيوم" أصبحت مضاعفة بشكل كبير خصوصاً وأن هذا الأخير صرح أمام الملأ أنه "سيطعم المغاربة التبن"¹⁹ وهو ما جرّ على "كيوم" ومعه فرنسا سلسلة جديدة من الأعمال البطولية قام بها رجال أشاوس من المقاومة المغربية خلال سنة 1953، نخص بالذكر منها:

- عملية اختلاس السلاح من القاعدة العسكرية الأمريكية بالنواصر، ناحية الدار البيضاء، قام بها مقاومان، جرح منهما اثنان بطلقات نارية، وذلك يوم 18 يناير 1953 م.

17 - بناصر حركات، عوامل نجاح ثورة الملك والشعب، مجلة المقاومة، عدد 9، شتنبر 1984 م، نقلاً عن زكي مبارك م.س، ص 133.
18 - Moulay abdelhadi Alaoui, le Maroc du traité de Fès à la libération : 1912-1956, Imprimerie Dédico, Salé, 1994, p.128

19 - زكي مبارك، م.س، ص 132.

- يوم 2 فبراير 1953م تم العثور على منشير وزعت من قبل الوطنيين بمدن مكناس والدار البيضاء والرباط.

- يوم 14 فبراير 1953م هوجم أحد حراس الأمن الفرنسي أمام منزله بالدار البيضاء من طرف فدائيين.

- في يوم الجمعة 16 غشت 1953م شهدت مدينة وجدة وضواحيها مظاهرات دامية، كما شهدت باقي مدن المغرب الأخرى انتفاضات شعبية أدت إلى مقتل عشرات من الوطنيين.

ولم تكن هذه الأحداث لتقع بهذه القوة لولا الإجراءات السياسية المستفزة التي كان وراءها المقيم "كيوم" وحليفه الوفي التهامي الكلاوي الذي عمل منذ 20 مارس 1953م على إجبار حوالي عشرين قائداً تحت إمرته ومعهم عدد غير قليل من الإداريين وبعض الأعيان، على توقيع عريضة تم رفعها إلى مقيم الجمهورية الفرنسية بالمغرب يطلبون منه أن يعمل على تنحية²⁰ محمد بن يوسف من العرش لأنه يسلك سلوكاً مخالفاً للشريعة الإسلامية ومنخرط في أسلاك الأحزاب المتطرفة، وهي العريضة التي تم توزيعها على كل أعيان ووجهاء المغرب، ومن رفض توقيعها تم طرده²¹.

وللإسراع بعملية عزل ونفي محمد الخامس، وبتعليمات من المقيم كيوم أعلن الباشوات والقواد المجتمعون في بيت الكلاوي يوم 15 غشت 1953م، بعد الظهر، سحب صفة إمارة المؤمنين من محمد بن يوسف، وتنصيب محمد بن عرفة عوضه، مما يعني أن محمد الخامس جرد من كل صلاحياته الدينية²².

وفي 16 غشت أدان القصر الملكي عبر بيان مطول له، تنصيب "الإمام الجديد"، ودعا فيه محمد الخامس شعبه إلى الاطمئنان والتمسك بالشجاعة ورباطة الجأش، وأن الامتحان الذي نمر به لن يدوم...²³

لكل هذا الأسباب وقعت الأحداث الدامية من قبل رجال المقاومة التي أشرنا إليها آنفاً. ورغم الأذى البالغ الذي لحق بالملك الشرعي على يد الكلاوي وأتباعه برئاسة المقيم كيوم، فإن

20 - نفسه، ص 135.

21 - Groupe d'auteurs, Histoire du Maroc, librairie nationale, Casablanca, 1967, p.402.

22 - Moulay Abdelhadi Alaoui, le Maroc du traité de Fès à la libération : 1912-1956, Imprimerie Dédico, Salé, 1994, p.137.

23 - Ibid, p.148.

محمد الخامس وجه كلمة إلى شعبه يوم 17 غشت يدعو إلى السلم من أجل الجميع، معبراً عن شعوره بالقول إن: "هذه الأحداث التلقائية هي ترجمة للشعور بالغضب الذي استبد بالأوفياء لنا منذ أن تم الإعلان عن العمل الدنيء (تنصيب ابن عرفة ملكاً) الذي يمس بحرمة قوانين الإسلام، (...)، ورغم ذلك نحث رعايانا على ضبط النفس وتجنب كل إراقة للدماء"²⁴.

كل هذا الجنوح إلى السلم لم يشفع لمحمد الخامس، إذ بمجرد الإعلان عن تنصيب ابن عرفة أميراً للمومنين انتقل "كيوم" إلى تنفيذ قراره الشنيع القاضي بعزل عاهل البلاد ونفيه²⁵.

وهكذا، ما أن حل يوم 20 غشت 1953م الموافق لليلة عيد الأضحى حتى كانت مدينة الرباط تحت الحصار، وفي الساعة الواحدة وثلاثين دقيقة بعد الزوال، تم تطويق القصر الملكي بعدد غير قليل من الدبابات ورجال الشرطة والعسكر. وعندما قابل المقيم "كيوم" محمد الخامس طلب منه التنحي عن العرش. وأمام رفض العاهل المغربي، خاطبه "كيوم" قائلاً: إن الحفاظ على الأمن في البلاد يفرض إبعادك²⁶.

لحظات بعد ذلك، ترك سيدي محمد بن يوسف، وابناه مولاي الحسن ومولاي عبد الله القصر من دون إظهار أية مقاومة، ليستقلوا بعد ذلك سيارة أوصلتهم إلى مطار الرباط من حيث طاروا على الساعة الثالثة بعد الزوال في اتجاه كورسيكا بلد المنفى والإبعاد²⁷.

III. رد فعل الشعب المغربي وعودة الملك محمد الخامس

بتنفيذ جريمة النفي هذه، لم تكن فرنسا تعلم أن البطل محمد الخامس تصرف بشكل يعجل باستقلال البلاد، وأن ما أرادته شراً بالمغرب انقلب عليه خيراً، إذ رد المغاربة بشكل فوري، عنيف وفعال²⁸ أتى أكله في وقت قياسي.

وفيما يلي جوانب من هذا الرد، وما رافق ذلك من صعود ونزول في المناخ السياسي بين باريس والرباط، ومدغشقر مع ردود فعل الجامعة العربية وهيأة الأمم المتحدة وغيرها.

24 - Ibid, p.150.

25 - Hassan II, Le Défi, op.cité, pp.54-55

26 - Moulay Abdelhadi Alaoui, op.cité, p.15

27 - Ibid, p.153.

1- على المستوى العسكري:

أول ما يلفت الانتباه في تاريخ المغرب لهذه الفترة العصيبة هو الرجة القوية في عقول وأنفس المغاربة جراء إبعاد ملكهم ونفيه إلى مدغشقر، فترتب عن ذلك رد فعل قوي من قبل الشعب المغربي²⁹.

ونبدأ بالإشارة إلى ظهور المناشير الأولى الداعية إلى العمل المباشر. وذلك يوم 28 غشت 1953م ، لينطلق العمل المسلح والعمليات الفدائية يوم 11 شتنبر بالرباط، عندما حاول البطل الشهيد علال بن عبد الله طعن وتصفية محمد بن عرفة الذي كان متوجها في موكب لأداء صلاة الجمعة³⁰ في حدث تاريخ شهير ومجيد. وفي يوم 17 من نفس الشهر، توصلت شخصيات مخزنية عديدة برسائل تهديد موقعة من قبل منظمة اليد السوداء³¹.

وهكذا بدأت وتيرة العمليات الفدائية تتصاعد يوماً بعد يوم وأسبوعاً بعد أسبوع، إذ في 7 نونبر 1953م تم تفجير السكة الحديدية لسريع الدار البيضاء الجزائر، وهو التفجير الذي خلف سبعة من القتلى وعدداً من الجرحى، كما انفجرت قبلة من صنع محلي يوم 24 دجنبر، عشية الاحتفال بعيد ميلاد المسيح، بالسوق المركزي بالدار البيضاء، وسط عدد كبير من الأوروبيين المنهمكين في مشتريات العيد. وقد خلف هذا الانفجار 18 قتيلاً و40 جريحاً، كما تم اكتشاف قبيلتين مماثلتين في مقر مركز البريد، قبل انفجارهما³².

خلال سنة 1954م صارت روح المقاومة تحرك المغاربة في كل ربوع الوطن، إذ في 20 فبراير تم رمي الكلاوي بقنبلة داخل مسجد الكتبية من دون أن تصيبه، ويوم 5 مارس في مدينة مراكش، أصيب ابن عرفة بجروح بمسجد بريمة وهو ساجد، فخرج ووجهه ملطخ بالدم، وكاد يفقد إحدى عينيه. ولم يسلم المقيم العام "كيوم" نفسه، عندما نجا من محاولة اغتيال دبرت ضده يوم 24 ماي³³.

29 - Groupe d'auteurs, Histoire du Maroc, op.cité, p.403.

30- زكي مبارك، م.س، ص 134.

31 - Moulay Abdelhadi Alaoui, op.cité, p.164.

32 - Ibid, p.164.

33 - Ibid, p.169.

سنة 1955م كانت حافلة بدورها بعمليات المقاومة من أجل تحرير البلاد وعودة السلطان. نذكر على سبيل المثال بعضاً منها، مثل ما حدث بمرس السلطان بالدار البيضاء يوم 14 يوليوز³⁴، عندما انفجرت قنبلة قوية المفعول، خلفت سبعة قتلى أوريبيين وعدداً من الجرحى مما جعل منظمة "الحضور الفرنسي" *"présence française"* الإرهابية تطلق يد أعضائها والمنتسبين لها لتعيث فساداً في المدينة بإحراق الممتلكات والسيارات، والنهب والسلب وإعدام المغاربة بشكل عشوائي، مؤازرين في ذلك بأسراب من الشرطة. ومما يدل على أن الوضع كان خطيراً، الحصيلة الثقيلة من القتلى والجرحى خلال أربعة أيام من الاقتتال بالدار البيضاء³⁵:

66 - قتيلاً منهم 38 مغربياً.

366 - جريحاً منهم 218 مغربياً.

غير أن العمل المزلزل الذي عجل بنهاية الوجود الفرنسي بالمغرب، هي العمليات العسكرية التحريرية التي كان وراء إعدادها والسهرة عليها رجال أشاوس من جيش التحرير المغربي. ونخص بالذكر ما وقع في ليلة فاتح وثاني أكتوبر 1955م³⁶ عندما هاجمت قوات هذا الجيش موقعين عسكريين حدوديين في الريف هما تيزي وسلي وبوريد، وفي الليلة الموالية تم مهاجمة مرصد بوزينب، المنشأ في المنطقة الإسبانية، والاستيلاء عليه بعد اقتلعه.

في الأطلس المتوسط، هاجم رجال التحرير الموقع العسكري لإيموزار مرموشة، وكان هذا الهجوم بدوره أكثر دموية، أسفر عن عشرة قتلى ضمنهم مراقب مدني. كما استولى المجاهدون على كمية هامة من الأسلحة، مع ملاحظة أن أعمالاً فداية أخرى حدثت أيضاً في نفس الوقت ضد مركز تافوغالت ببني يزناسن³⁷.

الإدارة الفرنسية وهي تتفاجأ ببروز الكفاح المسلح ردت بقساوة مفرطة، بحيث أن القوات الفرنسية قامت بما أسمته "عملية تطهير" واسعة في المثلث الشهير: تيزي وسلي - أكنول - بوريد،

34 - groupe d'auteurs, op.cité, p.403.

35 - Moulay abdelhadi Alaoui, op.cité, p.186.

36 - يتحدث علال الفاسي عن هذه الخسائر في الأرواح الناجمة عن العمليات الفداية التحرير في كتابه: نداء القاهرة، م.س، ص 60.

37 - moulay abdelhadi alaoui, op.cité, p.212.

كما تدخل الطيران لصالح إيموزار مرموشة وأمطر قراها الصغيرة المجردة من الدفاع بوابل من النيران³⁸.

2. على المستوى السياسي:

بعد نفي محمد الخامس مباشرة يوم 20 غشت 1953م، عبرت السلطات الإسبانية عن غضبها من الفعل الإجرامي الذي قامت به فرنسا دون استشارتها³⁹، ورفضت من أجل ذلك الاعتراف بالأمر الواقع⁴⁰ على لسان مفوضها السامي بتطوان الجنرال كراسيا فالينو Valino Gracia الذي أكد بشكل علني عن عدم رضاه يوم 21 فبراير 1954م⁴¹.

وخلال تجمع كبير، وقع حوالي 430 من الباشوات والقواد والأعيان بمنطقة الحماية الإسبانية الشمالية للمغرب على عريضة يتبرأون فيها من الإجراءات السياسية التي أفضت إلى عزل السلطان الشرعي سيدي محمد بن يوسف رافضين في الوقت نفسه سلطة محمد بن عرفة.

جامعة الدول العربية أيضاً رفضت الاعتراف بابن عرفة، وهو ما نفهمه من الحملات الصحفية وعلى أمواج الإذاعات العربية مدينة بذلك عملية 20 غشت 1953م الدنيئة، التي أقدم عليها الفرنسيون، سيما إذاعة صوت العرب في القاهرة التي كانت توجه النداءات تلو الأخرى للشعب المغربي من أجل الانتقال إلى العمل المباشر⁴²، دون إغفال اهتمام هيئة الأمم المتحدة بالموضوع⁴³، مع ملاحظة أنه غالباً ما كانت القضية المغربية تجد آذاناً صماء لقوة اللوبي الأوربي، رغم وقوف الدول العربية والأسبانية إلى جانب المغرب. لكن ماذا عن فرنسا مرتكبة الجريمة؟

أربعة أشهر بعد نفي محمد الخامس إلى مدغشقر، وبعد رد الفعل القوي من قبل المغاربة، الذي تجلّى في الأعمال الفدائية المزلزلة والمتواصلة كما مر بنا، حتمت الوضعية الحرجة في المغرب على فرنسا

38- Ibid.

39 - Zaki M'barek, résistance et armée de libération..., Tanger 1953, 1.33

40 - من أجل اطلاع أوسع على المعاملة الحسنة التي خصت بها إسبانيا المنطقة الخليفية، يمكن الرجوع إلى: الخليفة السلطاني في شمال المغرب وصحرائه الأمير مولاي الحسن بن المهدي، ضمن أعمال الندوة الدولية، المنظمة بتطوان أيام 9-10-11 أكتوبر 2014م، منشورات مؤسسة الشهيد أحمد بن عبدود.

41 - Moulay abdelhadi Alaoui, op.cité, p.166.

42 - Ibid, p.167.

43 - Ibid.

إرسال لجنة برلمانية في بداية يناير 1954م برئاسة الجمهوري المستقل رولان دو موسيتي Roland de Moustier. وفي 11 فبراير وضعت هذه اللجنة خلاصة لمهمتها أمام أنظار لجنة الشؤون الخارجية، من أهم ما جاء في هذه الخلاصة⁴⁴:

1- إن إبعاد السلطان وعكس المبتغى والمراد من ذلك، لم يمكن من خلق صيغة مرنة لتسوية العلاقات المغربية الفرنسية.

2- بل على العكس من ذلك لا تزيد الوضعية السياسية إلا تعقيدا في المغرب، منذ 20 غشت، مما جعل الحماية تجد نفسها في وضع حرج جدا جراء أعمال العنف والعنف المضاد.

3- وأخيرا، إنه من العبث الحديث عن إصلاح ديمقراطي في المغرب، طالما ظل مناخ الحماية متوترا وجامدا، ودون القيام بسلسلة من أعمال التغيير الحقيقية، وهذا يتطلب إعادة النظر بشكل جذري في السياسة الفرنسية بالمغرب.

هذه الخلاصة، جعلت باريس على ما يبدو تعيد النظر في المقاربات السياسية التي توظفها في التعاطي مع الورطة التي وضعت فيها نفسها بعد نفي السلطان، وما ترتب عن ذلك من قلق ومن خسائر في الأرواح من العسكريين والمدنيين الفرنسيين، وتجلي ذلك في:

1- إقالة المقيم "كيوم" لأنه عوض أن يحل المشكل المغربي زاده تعقيدا، وتم تعويضه بفرانسيس لا كوست Francis lacoste في شهر يونيو 1954م⁴⁵.

2- الدعوة لإجراء مفاوضات إكس ليبان⁴⁶ Aix-les-Bains وهي مفاوضات أجبرت فرنسا على إجرائها بهذه المدينة، بين ممثلي الحركة الوطنية المغربية والسلطات الفرنسية خلال الفترة الممتدة ما بين 20 و 30 غشت 1955م، بخصوص استقلال المغرب. وخلال هذه المفاوضات تم الاتفاق على سحب محمد بن عرفة وإبعاده، وإنشاء مجلس حفظة العرش، وتعيين السلطان محمد بن يوسف لحكومة مفاوضة بعد انتقاله من مدغشقر إلى فرنسا.

44 - Moulay abdelhadi Alaoui, op.cité, p.168.

45 - Ibid, p.170.

46 - من أجل التوسع في هذا الموضوع يمكن الرجوع إلى: زكي مبارك، محمد الخامس وابن عبد الكريم...، م.س، ص 153 وما بعدها.

3- بتاريخ 5 شتنبر 1955م تم إرسال وفد لمحمد الخامس، من قبل السلطات الفرنسية إلى مدينة أنتسيرايبى Antsirabé بمدغشقر لاطلاعه على ما اتفق عليه في محادثات إكس ليبان Aix les Bains خصوصا ما يتعلق بمجلس حفظة العرش وتشكيل حكومة تفاوض فرنسا. وأبرز موقف عبر عنه محمد الخامس في هذا اللقاء، هو رفضه لفكرة الاستقلال الذاتي للمغرب، أو السيادة المشتركة مع فرنسا، مع إبداء جلالته للمرونة المطلوبة في باقي القضايا الأخرى، مما يعني أن اللقاء بين الطرفين كان ناجحاً⁴⁷.

بعد محادثات إكس ليبان Aix les Bains ومقابلة محمد الخامس بمدغشقر، بدأت الأحداث تتداعى تباعاً في اتجاه حل المشكل المغربي وعودة الملك إلى بلاده ومعه الاعتراف بالاستقلال، ويمكن إجمال هذه الأحداث كالاتي:

1- اندلاع سلسلة من الانتفاضات الجديدة في جبال الأطلس والريف للضغط أكثر على فرنسا⁴⁸.

2- إعلان 4 أكتوبر 1955م من قبل جيش التحرير المغربي يفيد أنه لن يضع السلاح إلا بعد الحصول على الاستقلال وعودة محمد الخامس لعرشه بالرباط⁴⁹.

هذا التصعيد في العمليات الفدائية، أعطى النتائج المرجوة منها فترتب عن ذلك:

- نقاش كبير حول المغرب بالبرلمان الفرنسي يوم 6 أكتوبر، عنوانه: "الأزمة المغربية والإجراءات الحكومية لوجود حل"⁵⁰.

- بيعة التهامي الكلاوي لمحمد الخامس يوم 26 أكتوبر 1955م⁵¹ وانبطاحه أمامه.

- ابن عرفة وهو في عزله بطنجة، منذ أن أجبر على الانسحاب من العرش بتاريخ فاتح أكتوبر 1955، يخبر بالتلغراف الرئيس الفرنسي روني كوتي René Coty أنه يتخلى عن كل حقوقه، وأنه يحث أتباعه على التعلق بشخص السلطان محمد بن يوسف، وذلك يوم 29 أكتوبر من نفس السنة⁵².

47 - Moulay abdelhadi Alaoui, op.cité, p.201.

48 - Ibid, p.211.

49 - Ibid, p.211.

50 - Ibid, p.213.

51 - Hassan II, le Défi, op.cité, pp 64-65.

52 - Ibid, p.64.

- عودة محمد الخامس من منفاه لمدغشقر إلى فرنسا، على متن طائرة⁵³ أقلته إلى مدينة نيس الفرنسية حيث وصل يوم 31 أكتوبر 1955م صباحاً.

وفي فاتح نونبر، كانت للعاهل المغربي بسان جيرمان اونلاي Saint-Gemain-en-laye بضواحي باريس محادثات مع وزير خارجية فرنسا حول المشكل المغربي الفرنسي، خصوصاً ما يمت بصلة للسيادة المشتركة التي طالما تحفظ ملك المغرب بشأنها، وفي اليوم الموالي، استقبل هذا الأخير أعضاء مجلس العرش الأربعة، وكلفهم بمواصلة مهمتهم من أجل تسيير شؤون البلاد في انتظار عودته⁵⁴.

ومما لا شك فيه أن محادثات الملك المغربي مع المسؤولين الفرنسيين بباريس بمن فيهم الرئيس ومع أعضاء حفظة العرش، هيأت الظروف الملائمة لعودة الملك الشرعي إلى بلاده، بعد التوصل إلى "بروتوكول" تفاهم سياسي، يضع حداً لقراية نصف قرن من الحماية الفرنسية على المغرب، بعد أن أقر مجلس الوزراء الفرنسي بتاريخ 5 نونبر 1955م إعادة محمد الخامس إلى عرشه ومع استقلال البلاد⁵⁵.

وكخلاصة يمكن القول أنه بعد التضحيات الكبيرة التي قدمها الشعب المغربي، ونكران الذات الذي أبان عنه محمد الخامس وعائلته بقبوله المنفى والإبعاد عوض الذل والخنوع. كان الشعب في قمة فرحه وهو يستقبل يوم 16 نونبر 1955م ملكه المفدى، وعلى طول الطريق بين الرباط وسلا، كان موكب الملك يمر تحت أقواس النصر، وسط بحر من الهتافات والأهازيج، صادحة بحياة جلالته. وعند وصوله وجه محمد الخامس كلمة من داخل قصره للجمهور المحتشد في المشور، مما جاء فيها: "شعبي العزيز، نحمد الله الذي سمح بلقاءنا من جديد، وجعل حداً لشقائنا، وكافأنا على مجهوداتنا"⁵⁶. لقد حُقَّ لملك ورعيته في لقاءهما التاريخي هذا أن ينتشيا ويستمتعا بشمار ثورة الملك والشعب ويتذوقا طعم الحرية والاستقلال. وما ضاع حق وراءه مطالب.

53 - Ibid, p.64

54 - Moulay abdelhadi Alaoui, op.cité, p.225

55 - Ibid, p.225

56 - Ibid, p.230

أصداء ثورة الملك والشعب في الساحة العربية

د. منير روكي

برشيد

تشكل فترة الخمسينيات مرحلة حرجية في تاريخ المغرب المعاصر بحكم الأحداث الخطيرة التي شهدتها مباشرة بعد نفي السلطان سيدي محمد الخامس، وانطلاق شرارة المقاومة وثورة الملك والشعب، الأمر الذي بلور تحولات جذرية وعميقة هيكلت المجتمع المغربي وكانت له آثار بعيدة المدى في علاقة المغرب بالإقامة الفرنسية من جهة، وبتطور علاقة السلطان بالحركة الوطنية من جهة ثانية، لاسيما وأن حياكة المؤامرة كانت لها تداعيات على المستوى الوطني والمحلي، فكان من الطبيعي أن ينشأ عنها ردود فعل عديدة صبت جلها في خدمة القضية المغربية.

لم يكن نضال المغرب بمعزل عن الكفاح الذي كانت تعيشه الأمة العربية في مرحلة الخمسينيات حين تصاعدت مقاومة الاستعمار والتهبت المشاعر القومية العربية، بحيث أصبحت أية قضية في أي قطر عربي هي قضية العرب كلهم. وقد ساعد في تأجيج هذه الروح القومية المتدفقة مشاعر المرارة والأسى والسخط ضد المستعمرين الذين ساعدوا على خلق الكيان الصهيوني في فلسطين عام 1948م، فأصبحت فلسطين قضية العرب المركزية التي تجمعهم وتذكرهم أن الاستعمار كان وراء خلق هذا الكيان المصطنع، لذلك كان النضال ضد الاستعمار والصمود أمامه يجتذب جماهير الأمة العربية في أية بقعة من الوطن العربي، وكانت إحدى هذه القضايا نضال المغرب ضد الفرنسيين من أجل استقلالهم وعودة محمد الخامس. فما هي أهم ردود الفعل العربية التي أعقبت نفي السلطان سيدي محمد بن يوسف عن عرشه؟

أولاً: ظروف وملابسات نفي السلطان محمد الخامس:

من الضروري جداً في هذا السياق الحديث عن الظروف التي رافقت عزل ونفي سيدي محمد ابن يوسف عن عرشه، ولعل أهمها بداية توطيد التعاون بين الملك ورجال الحركة الوطنية، فقد عرفت فترة الخمسينيات من القرن العشرين استمرار اللقاءات بين زعماء الحركة الوطنية والملك سرا¹، وكان حزب الاستقلال يسعى إلى اكتساب ود السلطان لتشمله البركة الشريفة بانتسابه إليه وقد كان من الطبيعي أن يتجه السلطان إلى هذا الحزب لأنها يتبنيان قضية مشتركة، وبانتسابه لحزب الاستقلال أصبح الحزب يعتبره الناطق باسمه². غير أن إدارة الحماية كانت تتخوف من هذا التقارب رغم ما كانت تروج له من أن أقطاب الحركة الوطنية كانوا مجرد قلة من البرجوازية الحضرية لا يتوفرون على قاعدة شعبية لأن توحيد الحركة الوطنية مع السلطان يشكل خطراً ملموساً³.

وفي هذا السياق حاول الجنرال جوان تعكير صفو العلاقة المتميزة بين السلطان ورجال الحركة الوطنية حيث أوعز للسلطان بإقالة الوزراء الاستقلاليين من المخزن المغربي⁴، غير أن محمد الخامس لم يقبل اقتراحات المقيم العام وزاد تأكيداً على الارتباط بالوطنيين الذين أصبحت تجمعهم وحدة التفكير والعمل⁵، فاختار الوطنيين وبذلك ازدادت شعبيته لدى كل الأحزاب والتنظيمات النقابية وعموم الشعب المغربي حتى أصبح يلقب بسلطان الكاريان سنطرا⁶.

تجمع عدد من الدراسات الحديثة⁷ أن ملامح التغيير في علاقة السلطان محمد الخامس بالإقامة العامة بدأت حينما حاول محمد الخامس استعمال السلطة الوحيدة الهامة التي تركتها له معاهدة الحماية

1 - غلاب عبد الكريم، تاريخ الحركة الوطنية بالمغرب من نهاية الحرب الريفية إلى بناء الجدار السادس في الصحراء، مطبعة الرسالة، الرباط، 1987م، ج 1 - ص 395.

2 - روم لاندو، تاريخ المغرب في القرن العشرين، ترجمة نقولا زيادة، مراجعة أنيس فريجة، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط2، 1980، ص 374.

3 - روم لاندو، محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى وفاته، تعريب ليلي أبو زيد، منشورات الآفاق الجديدة، بيروت، لبنان، 1979م، ص 69.

4 - Julien, André, L'Afrique du Nord en Marche, paris, 1952-p.378.

5 - روم لاندو، محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى وفاته، مرجع سابق، ص 73.

6 - Daniel Rivet, Le Maroc de Iyautey a Mohamed V, le double visage du protectorat, Edition Denoël, Paris, 1999-pp.388-389.

7 - أنظر، حسنة مازي، نفي السلطان محمد بن يوسف والعمل الفدائي، ضمن: محمد الخامس والكفاح الوطني من أجل الاستقلال : ثقافة الوطنية في خدمة المواطنة : أعمال الندوتين المنعقدتين بتازة في 30 نونبر 2005م والرباط في 16 نونبر 2006م، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2007م، ص 73-80.

وهي توقيع الظهائر والقوانين الجديدة⁸، وبذلك بدأت الإقامة العامة في الضغط على السلطان لإمضاء الظهائر المعلقة والتي رأى الفرنسيون أن تراث جلالته في إمضائها فيه نوع من الإضراب عن إصدار الظهائر التي تعودوا أن يستصدهروها بكامل الحرية قبل وصول الوعي القومي لمداه الحالي⁹.

بدأ تهديد السلطان بالنفي من قبل الجنرال جوان سنة 1953م في حالة امتناعه عن توقيع الظهائر والنصوص التشريعية التي كان يراها ضرورية لتحقيق أهدافه، بيد أنه خضع في الأخير حقنا للدماء، حيث شرح السلطان للسيد كلوزيل " أنه وقع الورقة لمنع سفك الدماء وأنه يعتبر المستند غير رسمي لأنه وقع تحت الضغط". ولتكون الإقامة العامة منسجمة مع اتفاقية الحماية حاولت تغليف خلعها للسلطان بنوع من الشرعية بحيث يقوم شعبه بعزله، فوجدت في شخصي الكلاوي¹⁰ والكتاني¹¹ خير معين لها على تنفيذ سياستها، وصار الرجلان يجمعان التوقيعات لخلع السلطان من بين أنصارهما، وبالفعل فقد حصلا على 270 توقيعاً. وأرغما علماء فاس على توقيع بيعة ابن عرفة "غير أن هؤلاء الموقعين أنفسهم بعثوا بعد بضعة أسابيع برسائل إلى السلطان يؤكدون على أنهم وقعوا تحت الضغط".

وفي العشرين من غشت 1953م دخل الجنرال غيوم برفقة مدير الأمن وفرقة مسلحة على السلطان وطلب منه التنازل على العرش، وحين رفض، طلب المقيم العام من مدير الأمن اعتقاله فتقدم ضابطان فرنسيان وقادا جلالته إلى سيارة عسكرية مصفحة، وبعد إلقاء القبض على الأميرين مولاي الحسن والمولى عبد الله اقتيد الجميع إلى معسكر السويسي وظلوا هناك إلى حين نقلهم إلى

8 - ورد في المادة الرابعة من معاهدة الحماية ما يلي: "سيصدر جلالته الشريفة القرارات بالإجراءات التي يتطلبها النظام أو من السلطات التي قد ينوب عنها طبقاً لاقتراح الحكومة الفرنسية وستراعى نفس الطريقة في مسألة القوانين الجديدة وتعديل القوانين المعمول بها". الجريدة الرسمية، 30 مارس 1912م.

9 - علال الفاسي، الحركات الاستقلالية في المغرب العربي، مطبعة النجاح الجديدة، البيضاء، الطبعة الخامسة، 1993م، ص. 417.

10 - حول دور الكلاوي في نفي السلطان،

- العسة أحمد: المعجزة المغربية، دار القلم للطباعة، بيروت 1975م، ص. 258.

- الكلاوي عبد الصادق، أبي الحاج التهامي الكلاوي الأوبة، ترجمة فريد الزاهي، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات الرسم، الرباط، 2004م، ص. 183.

11 - جوليان، شارل أندري، إفريقيا الشمالية، ترجمة المنحي سالم وآخرون، الشركة الوطنية للتوزيع والنشر، الجزائر، 1976م، ص. 369.

جزيرة كورسيكا¹². وفي خضم ذلك تأكد للوطنيين أن العمل المسلح ضد الاحتلال أصبح خيارا استراتيجيا وضرورة لا محيد عنها¹³. فالتعليمات الصادرة عن قادة الحركة الوطنية مفادها أن الفرنسيين إذا وضعوا أيديهم بسوء على جلالة الملك فيجب أن يقوم كل الوطنيين وسائر المغاربة برد فعل عنيف¹⁴.

ثانيا: دول عربية ترفع عن المغرب بهيئة الأمم المتحدة:

لقد كان لمؤامرة نفي السلطان محمد الخامس أثر كبير على الدول العربية الإسلامية، فانبرى عدد كبير من هذه الدول للدفاع عن المغرب وسيادته تحت وصاية الأمم المتحدة، ففي الجلسة العمومية 443 التي جرت صباح يوم الخميس 24 شتنبر 1953م، تدخل السيد زين الدين مندوب سوريا في عرض كامل شامل مذكرا بشهامة السلطان وأن فرنسا لجأت إلى نفيه لأنه رفض الامتثال لتهديداتها، وبذلك برهن عن مقاومة بطولية عزز بها رغبات شعبه الذي اعتقل فيه المئات وأعدم منه العشرات.

وقد انتقد مندوب سوريا موقف مندوب الولايات المتحدة الأمريكية السيد داليس الذي لم تكن الأرض الإفريقية تهمه، ناعتا تجاهل المندوب الأمريكي للقضية المغربية "بالنسيان السياسي"¹⁵.

12 - جلال زين العابدين، الجنرال غيوم ومؤامرة خلع السلطان سيدي محمد بن يوسف: الحثيات والسياق، أعمال الدورة الثامنة عشر لجامعة مولاي علي الشريف، المرحلة الثانية من عهد سيدي محمد بن يوسف: 1939-1955م، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، 2016م صص. 249-258

13 - يرى شارل أندري جوليان أن نفي محمد الخامس كان خطأ سياسيا لكون خلع السلطان في المنظور الإسلامي لا يجوز إلا بشروط محددة وهو ما لا يتوفر في محمد بن يوسف الذي كان الشعب يجمع على شرعيته باستثناء الكلاوي وأشباعه وهم فئة قليلة. إضافة إلى التوقيت الذي تم فيه النفي هو يوم حافل بالدلالات في المنظور الإسلامي فقد تصادف مع ليلة عيد الأضحى. ويعتبر ذبح السلطان لأول أضحية مسألة هامة لأن الشعب يتيمن بها خيرا وبذلك اعتبر نفيه في هذا اليوم تعطيلا لسنة من السنن المهمة بالنسبة للمسلمين وهو ما أثار غضبهم. أضف إلى ذلك أنه من المعلوم أن تقام صلاة الجمعة باسم السلطان، وبما أنها أصبحت تقام باسم ابن عرفة، فقد أفرغت المساجد من المصلين بل أكثر من ذلك قاطع الناس المترددين عليها، وما كان لإدارة الحماية أن ترغم الناس على الذهاب إلى المساجد للصلاة باسم ابن عرفة لكون المغاربة كانوا يعتبرونه سلطان الفرنسيين ولا يمكن أن يكون سلطانا عليهم.

Julien, André, *Le Maroc face aux Impérialismes (1415-1956)*, Editions J.A, Paris 1978, p.334.

14 - زكي مبارك، محمد الخامس وابن عبد الكريم الخطابي وإشكالية استقلال المغرب، منشورات فيديبرانت، الرباط، 2003م، ص. 133.

15 - عبد الهادي التازي، ثورة 20 غشت في الأرشيف الدولي، ضمن: الذكرى الخمسون لثورة الملك والشعب، ندوة 22-24 غشت 2003م بالرباط، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، سلسلة "الدورات"، 2004م، ص. 94.95.

إن فرنسا عند نفيها للسلطان محمد الخامس كانت قد حصلت على موافقة بعض الحكومات، في إشارة إلى حكومة واشنطن. وهنا وجد المندوب السوري الفرصة ليذكر بأن المغرب الذي نرى اليوم ملكه في المنفى، كان أول بلد اعترف بالولايات المتحدة الأمريكية في عهد الرئيس جورج واشنطن، هذا المغرب كان يستحق من الرئيس أيزنهاور أن يهتم به.

وفي جلسة الجمعة 25 شتنبر 1953م، أخذ الكلمة السيد حلمي بهجة بدوي مندوب مصر الذي سار على نهج من سبقه: أن المغرب تحول من نظام الحماية إلى حالة من العبودية الكاملة، وإن هذه الحالة هي التي أدت إلى خلع ونفي سلطان المغرب¹⁶. وفي الجلسة العمومية لظهر الإثنين 28 شتنبر 1953م تدخل مندوب العراق ليتحدث عن تداعيات أحداث 20 غشت، وتساءل عما حدا بفرنسا أن تتجاهل قرارات الأمم المتحدة وتقدم على ما أقدمت عليه ضد إرادة الشعب المغربي¹⁷. وبعد أن ندد بما سماه استهتار فرنسا بمقررات الأمم المتحدة قال: إن سفك الدماء أصبح أمرا عاديا ببلاد المغرب، لقد حاولت فرنسا فرض إصلاحات معينة على العاهل، وتجاهلت المشكل الأساسي الذي هو الحرية التي يطمح لها الشعب. إن فرنسا لم تكتف بالتدابير القمعية التي اتخذتها وسيلة للرد على مطالب الشعب المغربي ولكنها قامت بعمل لم نر له مثيلا في تاريخ الاستعمار، لقد عمدوا إلى السلطان المغربي، العاهل الشرعي المحبوب من طرف شعبه فخلعوه ونفوه لأنه دافع عن رغبات الشعب المغربي في الحرية والاستقلال.

تدخل مندوب العراق في الجلسة المنعقدة يوم 19 أكتوبر 1953م واعتبر أن المغرب يتوفر على كل المؤهلات المطلوبة لاسترجاع استقلاله التام. وتناول المندوب العراقي الحالة العامة في المغرب وحالة التعليم بشكل خاص. كما ختم عرضه بإبراز غنى المغرب وخاصة ما يتصل بالثروات المعدنية ومع كل هذا فإن كل هذه الثروات إنما يستفيد منها المحتلون على حساب المواطنين المغاربة. وفي جلسة اليوم الموالي تدخل مندوب المملكة العربية السعودية الذي قام بتقديم عرض مسهب يحتوي على إحدى عشرة نقطة تناول فيها جوانب القضية المغربية، قائلا: "إن من حقنا أن ندافع عن هؤلاء الذين يتذمرون من الحالة التي يعيشونها، إن عرب هذه البلاد لهم كامل الحق في الحرية والاستقلال"¹⁸.

16 - نفسه، ص. 96.

17 - عبد الهادي التازي: التاريخ الدبلوماسي للمغرب، مطابع فضالة، المحمدية، 1986م، ج 9، ص. 225 وما بعدها.

18 - عبد الهادي التازي، ثورة 20 غشت في الأرشيف الدولي، مرجع سابق، ص. 99.

ولم يفت مندوب المملكة العربية السعودية أن يذكر بالمادة 73 من ميثاق الأمم المتحدة¹⁹ التي تعتمد المبدأ القاضي بأن مصالح الأقاليم التي ترزح تحت نير الاستعمار تقدم على كل مصلحة، وأن المحتلين مطوقين بأمانة مقدسة في عنقهم بأن يلتزموا بالعمل على تنمية ورفاهية أهل هذه الأقاليم إلى أقصى حد، إلى آخر التوصية الطويلة العريضة التي كان الحديث عنها يعني الشجب الكامل لعملة خلع السلطان سيدي محمد بن يوسف عن العرش وإبعاده إلى أقصى الدنيا²⁰.

وقد تدخل في نفس الجلسة مندوب سوريا السيد الرفاعي ليؤكد ما قالته سوريا في تدخل طويل أمام الجمعية العامة عن المغرب، وهو يؤكد اليوم في آخر تدخله أن المملكة المغربية دولة مستقلة، صاحبة سيادة ولا تربطها مع فرنسا إلا المعاهدات الدولية. وفي الجلسة الصباحية ليوم الأربعاء 21 أكتوبر 1953م استأنفت اللجنة الرابعة مناقشتها، حيث أخذ الكلمة السيد عيطاني مندوب لبنان الذي سار في تدخله المسهب على نفس منوال سابقه، مذكرا بالبند 73 من ميثاق الأمم المتحدة ومؤكدا أنه لا يصح إطلاقا أن نرى المغرب محروما من حريته وسيادته، في حين نعرف جيدا أنه عاش قرونا عديدة يلغن العالم دروسا في الحضارة. إن فرنسا ستكون هي المنتصرة عندما

19 - تتمحور المادة 73 من ميثاق الأمم المتحدة حول ما يلي:

يقرر أعضاء الأمم المتحدة -الذين يضطلعون في الحال أو في المستقبل بتبعات عن إدارة أقاليم لم تتل شعوبها قسما كاملا من الحكم الذاتي- المبدأ القاضي بأن مصالح أهل هذه الأقاليم لها المقام الأول، ويقبلون أمانة مقدسة في عنقهم، الالتزام بالعمل على تنمية رفاهية أهل هذه الأقاليم إلى أقصى حد مستطاع في نطاق السلم والأمن الدولي الذي رسمه هذا الميثاق. ولهذا الغرض:

أ- يكفلون تقدم هذه الشعوب في شؤون السياسة والاقتصاد والاجتماع والتعليم، كما يكفلون معاملتها بإنصاف وحمايتها من ضروب الإساءة - كل ذلك مع مراعاة الاحترام الواجب لثقافة هذه الشعوب،

ب- ينمون الحكم الذاتي، ويقدرعون الأمان السياسية لهذه الشعوب قدرها، ويعاونونها على إنشاء نظمها السياسية الحرة نموا مطردا، وفقا للظروف الخاصة لكل إقليم وشعبه، ومراحل تقدمها المختلفة،

ج- يوطدون السلم والأمن الدولي،

د- يعززون التدابير الإنسانية للرفي والتقدم، ويشجعون البحوث، ويتعاونون فيما بينهم لتحقيق المقاصد الاجتماعية والاقتصادية والعلمية المفصلة في هذه المادة تحقيقا عمليا، كما يتعاونون أيضا لهذا الغرض مع الهيئات الدولية المتخصصة كلما تراءت لهم ملائمة ذلك،

هـ- يرسلون إلى الأمين العام بانتظام يحيطونه علما بالبيانات الإحصائية وغيرها من البيانات الفنية المتعلقة بأمور الاقتصاد والاجتماع والتعليم في الأقاليم التي يكونون مسؤولين عنها، عدا الأقاليم التي تنطبق عليها أحكام الفصلين الثاني عشر والثالث عشر من هذا الميثاق. كل ذلك مع مراعاة القيود التي قد تستدعيها الاعتبارات المتعلقة بالأمن والاعتبارات الدستورية.

20 - عبد الهادي التازي، ثورة 20 غشت في الأرشيف الدولي، مرجع سابق، ص. 99.

تستجيب لطموح الشعب المغربي، وأكد في الأخير على تحفظ لبنان إزاء كل استمرار في السياسة الاستعمارية المتبعة لحد الآن في المغرب²¹.

لم تغب القضية المغربية عن جلسات هيئة الأمم المتحدة سنة 1954م، ففي الجلسة العامة لصباح الإثنين 27 شتنبر 1954م أبرز مندوب العراق أن المغرب يعتبر اليوم أبرز بؤر التوتر في العالم التي تقتضي من الأمم المتحدة الالتفات إليها بجد، ولاسيما وأننا لم نر لحد الآن أية مبادرة من الحكومة لإصلاح الوضع القائم في المغرب. إن البلاد ما تزال مسرحا للإضرابات وتدفق الدماء الناتج عن التصرف الأهوج ضد مطامع الشعب المغربي... إنه يجب إرجاع السلطان محمد بن يوسف إلى عرشه. إن السلطان هو القائد الروحي للشعب المغربي، ولا يعقل أن تقوم دولة كفرنسا معروفة باحترام ديانات الآخرين، تقوم بالتدخل في الحياة الدينية للمسلمين. إن واجب الأمم المتحدة اليوم يكمن في أن تدعم بكامل قواها الموقف المغربي²².

ثالثا: صحف عربية تندد.

تمثل فترة الخمسينيات ذروة النضال الشعبي في مختلف دول العالم العربي وعلى رأسها المغرب الذي حصل على دعم عربي واسع النطاق لاسيما بعد تنفيذ مؤامرة 20 غشت ونفي ملك البلاد، حيث سخرت عدد من الدول العربية صحفها وجرائدها للتنديد بهذه المؤامرة وعلى رأسها العراق الذي لم تشغله الأحكام العرفية والأوضاع الداخلية الاستثنائية من متابعة القضايا العربية ومنها الوقوف مع المغرب في نضاله ضد الاستعمار ومن أجل عودة الملك الشرعي للبلاد، ذلك التعاطف الذي يمثل واحدا من المواقف القومية المتميزة التي اتخذتها الأحزاب والجمعيات القومية والوطنية في العراق والذي عبرت عنه من خلال صحافتها ومنشوراتها وهيئاتها الاجتماعية وممثليها في مجلس النواب²³.

منذ 14 غشت 1953م، بدأت الصحافة العراقية تكتب بعناوين كبيرة في أعلى الصفحات عن الباشا الكلاوي الذي وصفته بالخائن، وعن علاقته بالفرنسيين واتخاذهم له وسيلة في محاولتهم خلع

21 - عبد الهادي التازي، ثورة 20 غشت في الأرشيف الدولي، ص. 101.

22 - نفسه، ص. 107.

23 - مظفر الأدهمي، محمد الخامس وموقف الرأي العام العراقي: من الإبعاد إلى العودة: 1953-1955م، ضمن: الندوة الدولية حول محمد الخامس الملك الراحل، الرباط، 16-20 نونبر 1987م، جمعية رباط الفتح، 1987م، ص. 237.

سلطان مراكش حسب تعبير جريدة اليقظة البغدادية التي نشرت أيضا تصريحات الدكتور المهدي بنونة، والتي حذر فيها من أن فرنسا "توشك أن ترتكب جريمة كبرى في مراكش وذلك بمحاولتها خلع سلطان مراكش". وفي اليوم الموالي خرجت جريدة الحوادث بعنوان كبير جدا في صفحتها الأولى يقول "سلطان مراكش يتعرض لمؤامرات الخونة". كما خصصت جريدة اليقظة معظم مساحة صفحتها الأولى يوم 16 غشت 1953م لأخبار التآمر على محمد الخامس وكتبت في أعلى الصفحة: "ملك مراكش سجين في قصره المحاط بالجيش وقد منع من أداء فريضة الجمعة".

حرص الشعب العراقي على متابعة آخر التطورات السياسية بالمغرب من خلال الصحافة لاسيما صحافة المعارضة الوطنية وفي مقدمتها جريدة لواء الاستقلال الناطقة باسم حزب الاستقلال العراقي. وقد كتب العلامة محمد رضا مقالا افتتاحيا في جريدة الزمان تحت عنوان: "لمناسبة حوادث مراكش المؤسفة، محنة المغرب والمشرق" تحدث فيه عن استبسال المغرب في الدفاع عن قضيته أمام الفرنسيين.²⁴

وبعد نفي الملك واستقرار ابن عرفة بالحكم وسيطرة الكلاوي على مقاليد الأمور، إلا أن الصحافة العراقية تابعت موضوع المغرب وملكه الشرعي عند عرض قضيته على الأمم المتحدة، وحملت الصحافة على فرنسا، ووصفت حججها أمام مجلس الأمن بعناوين بارزة من قبيل: "السلطان المزيّف الجديد يدخل فاس في حماية حراب المستعمرين"²⁵. ونشرت أخبار التظاهرات المؤيدة للمغرب أمام مبنى الأمم المتحدة ورحبت بالدعوة لعقد مؤتمر شعبي في عمان لبحث تطورات الوضع في المغرب. وكتبت جريدة اليقظة في 25 غشت 1953م مقالا افتتاحيا تحت عنوان: "بعد خلع ملك مراكش لنكن عمليين"²⁶ طالبت فيه جامعة الدول العربية بالتحرك وتسليح الشعب المغربي ليتولى أمر الكفاح عن حقوقه وسيادته بنفسه بما عرف عنه من بسالة وتضحية وإقدام.

أما جريدة الحوادث فقد كتبت يوم 7 شتنبر 1953م مقالا افتتاحيا عن أحداث خلع السلطان محمد الخامس، ولم تكتف بذلك بل خصصت خبرا بعناوين بارزة لمهاجمة الكلاوي الذي وصفته

24 - جريدة الحوادث العراقية بتاريخ 17 غشت 1953م.

25 - جريدة الزمان العراقية بتاريخ 18 غشت 1953م.

26 - جريدة اليقظة العراقية، بتاريخ 27 غشت 1953م.

"بالخائن الأول". وكتبت الجريدة بعد خمسة أيام وبعناوين بارزة عن الباشا الكلاوي الذي أيد الجنرال كيوم في ذبح المغاربة²⁷.

وفي هذا الصدد، هاجمت عدد من الافتتاحيات والمقالات الصحفية المواقف الرسمية العربية التي اكتفت بإصدار بيانات احتجاج دون التحرك بشكل فعلي وكما يريده العراقيون. فقد كتبت جريدة الزمان: "على الحكومات العربية ألا تكتفي بالاحتجاجات وعرض الأمر على الأمم المتحدة، بل عليها أن تهب لإحباط المؤامرات الاستعمارية مهما كان مصدرها وأينما وقعت في البلاد العربية، وعليها بصدد قضية مراكش بالذات أن تتفق عاجلا على القيام بالإجراءات الفعالة لنجدة الشعب الشقيق ومساعدته على درء العدوان الجديد"²⁸.

ومن جهته، كتب الأستاذ محمد صديق في جريدة لواء الاستقلال وباسم حزب الاستقلال العراقي عن أحداث سنة 1953م قائلا: "إن الاستعمار أبى إلا أن يخلع سلطان مراكش لأنه رأى أنه من واجبه أن يكون إلى جانب شعبه، فجاء الفرنسيون بسلطان مزيف جديد يرضون عنه". كما طالبت جريدة اليقظة جامعة الدول العربية للتحرك وتسليح الجيش المغربي ليتولى أمر الكفاح والدفاع عن حقوقه وسيادته.

وبعد خمسة أشهر من نفي محمد الخامس نشرت جريدة لواء الاستقلال مقالا افتتاحيا بمناسبة عقد مؤتمر تطوان حاولت فيه أن تبين أن نضال المشرق العربي والمغرب العربي واحد ومع ذلك فإن المسؤولين العرب لم يأخذوا به وقالت: "إذا ما سرنا أن نسمع أنباء الاجتماع التاريخي الذي عقده أبناء مراكش فإن علينا أن لا نكتفي بهزة الابتهاج تنشرح لها جوانحنا... بل علينا أن نمدد هذا الاجتماع بما يجعل مقرراته حقيقة دامغة تفتح عيون الفرنسيين على واقع العرب الجديد"²⁹.

وغير بعيد عن المغرب، سخرت الصحف الجزائرية كل إمكانياتها للذود عن المغرب³⁰، ومن هذه الصحف جريدة المنار³¹ التي تضمنت منذ نسختها الأولى مقالا تحدث عن كفاح المغرب الأقصى

27 - مظفر الأدهمي، محمد الخامس وموقف الرأي العام العراقي: من الإبعاد إلى العودة: 1953-1955م، ص. 239-240.

28 - جريدة الحوادث العراقية بتاريخ 11 شتنبر 1953م.

29 - جريدة لواء الاستقلال، يناير 1954م.

30 - أبو القاسم سعد الله، صورة الملك محمد الخامس في بعض الصحف الوطنية الجزائرية (1951-1956م)، ضمن: الندوة الدولية حول محمد الخامس الملك الرائد، مرجع سابق، ص. 373.

31 - تشير بعض الدراسات إلى أن السلطان محمد بن يوسف تصدر اهتمامات القوى الوطنية في الجزائر خصوصا بعد لقاء أنفا وتقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال، رغم أن الاتصال به كان غير ممكن، غير أن زعماء الحركة الوطنية من خلال اتصالاتهم==

وعن الملك المحبوب محمد الخامس، الذي قد أعلن أكثر من مرة عن رغبة شعبه في الحرية وإرادته في إلغاء معاهدة الحماية، وقد تجلى ذلك في خطابه التاريخي الذي ألقاه بمدينة طنجة ثم في تصريحاته أثناء زيارته لباريس. وقد اعتبر كاتب المقال أن موقف الملك "موقفا مشرفا" وقال عنه إنه "عاهد الله والتاريخ بأن يبقى وفيا لشعبه الكريم"³².

وقد والت جريدة المنار الكتابة عن التطورات في المغرب فنشرت مقالة عن "عنصرية الاستعمار" كان محورها حول حوادث الدار البيضاء وتادلا. ثم مقالة أخرى عن "فظائع في المغرب الأقصى" بقلم الحاج عمر بن عبد العزيز وهي عبارة عن نص الاحتجاج حول الإرهاب الاستعماري المسلط على آيت سعيد بدائرة بني ملال، ولا غرابة أن تعلن المنار بعد ذلك أنها أصبحت ممنوعة من دخول الرباط بعد أن أخبرها المتعهد هناك بذلك³³.

وتحت عنوان "الحالة في المغرب الأقصى" نشرت المنار مراسلة من أحد كتابها بالمغرب تحدث عن العزلة التي أصبح يعيشها المغرب وعن الحديثين البارزين عندئذ هناك هما قضية الأطلس ثم ظهير الانتخابات البلدية. وقد ذكرت المراسلة أن السلطات الاستعمارية قد منعت الجماهير من التوجه إلى الرباط لإعلان الولاء للملك في عيد الفطر ورغم ذلك فإن الوفود قد تحدثت قرار المنع وذهبت لزيارة الملك، ولكنها عندما رجعت إلى مناطقها واجهت الاعتقالات³⁴.

حظيت قضية المغرب في المنار سنة 1952م باهتمام متزايد بحيث نجدها تنشر مقارنة بين الشهداء بالمغرب سنة 1944م ويوم 8 ماي 1945م في الجزائر. وقد تولى الكتابة عن هذا الموضوع مراسل الجريدة بفاس، وخصصت حيزا للمذكرة التي قدمتها "الجبهة القومية المراكشية إلى ملك

= = بالجزائريين في الخارج كانوا يبلغون محمد بن يوسف بالمستجدات على مستوى تنسيق الكفاح المغاربي ضد المستعمر وكان لخطاب طنجة صدى كبير حسبما ترويه بعض المذكرات وكان حافزا على المضي قدما في التخطيط من أجل تصعيد النضال في الجزائر لكي لا يتأخر تحريرها عن باقي أقطار شمال إفريقيا وبالذات تونس والمغرب.

راجع: عكاشة برحاب، محمد الخامس في الذاكرة الجزائرية، ضمن: محمد الخامس في الكتابات الوطنية والأجنبية، محمد الخامس من المنفى إلى بناء الدولة الحديثة: ندوتان علميتان، [فاس، 20 فبراير و28 مارس 2006م]، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2010م، ص. 151.

32 - جريدة المنار الجزائرية، العدد الأول، 29 مارس 1951.

33 - أبو القاسم سعد الله، صورة الملك محمد الخامس في بعض الصحف الوطنية الجزائرية (1951-1956م)، ضمن: الندوة الدولية حول محمد الخامس الملك الراحل، مرجع سابق، ص. 375.

34 - جريدة المنار، عدد 8، 31 غشت 1951م.

المغرب الأقصى" في 9 يناير 1952 وهي المذكرة التي انتهت بالمطالبة بإلغاء الحماية وإعلان الاستقلال. وكانت الجريدة قد أعلنت من قبل أن خطباء المساجد قد أعلنوا الدعاء إلى الله أن يتدارك الشعب المغربي بلطفه حتى ينال استقلاله وحرية "في ظل صاحب الجلالة المفدى سيدي محمد بن يوسف" وهو خبر تلقته عن جريدة العلم المغربية³⁵.

كادت أخبار المغرب تنقطع في جريدة المنار صيف 1953م بل واستمر ذلك إلى الخريف. غير إننا نجدها تعود إلى أزمة مراكش خلال شهر نونبر ووضعة صورة للسلطان في المقال الذي كتبه محمد المحفوظي. وقد افتتح الكاتب مقاله بقوله: "ما زلنا نذكر، والأسى يملأ جوانحنا، الظروف الأليمة التي خلع فيها جلالة الملك سيدي محمد الخامس عن عرش مراكش العتيد". وعدد الكاتب جوانب الأسى في نظره إذ هي خلع السلطان بمناسبة عيد الأضحى، والزج بمئات الأحرار في السجون والتنكيل بالأبرياء، ولأن "خلع ملك أحب أمته وأحبته لا يؤدي إلى تسوية المشكلة وستظل الأزمة قائمة ما دام الجنرال كيوم مقيما" وقد ذكر الكاتب أن بعض الفرنسيين قد وقفوا ضد خلع السلطان ومنهم: ماسينيون، وموريك، وجوليان، وبلاشير³⁶.

واصلت جريدة البصائر الحديث عن الأزمة المغربية إذ نجدها تتبنى قضية محمد الخامس بشكل التزام ديني وسياسي. وكان ذلك الموقف منها معبرا على رأي جمعية العلماء³⁷. ولا أدل على ذلك الالتزام من إصدار الجمعية فتوى في صالح بيعه السلطان محمد الخامس خلال شهر شتنبر 1953م. وقد خصصت الجريدة صفحاتها الأولى لثلاثة أمور هامة: الأول عنوان يقول "بعد فتوى شيخ الأزهر وعلماء مراكش، علماء الجزائر يقولون كلمتهم". والثاني عنوان يقول "بلاغ من جمعية علماء المسلمين الجزائريين" والثالث هو: وجود صورة رسمية للسلطان جالسا على كرسي العرش ومكتوبا تحتها: "سيدي محمد بن يوسف ملك المغرب الشرعي" .. وعلى نفس الصفحة نجد فتوى

35 - جريدة المنار، عدد 14، 26 دجنبر 1952م.

36 - جريدة المنار، عدد 49، 20 نونبر 1953م.

37 - سليمان الشيخ، ثورة الملك والشعب في الساحة الإفريقية، ضمن: جلالة المغفور له محمد الخامس: كفاح من أجل الاستقلال ودعم لحركات التحرير الإفريقية، ندوة دولية بالرباط، 14-15 نونبر 2005م، نشر المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2006م، صص. 26-28

شيخ الأزهر والتي حكم فيها على الكلاوي بالخروج على السلطان، وعلى فرنسا بأنها لا تحمي الإسلام، وأيد الشيخ بذلك فتوى علماء المغرب³⁸.

من جهة ثانية خصصت جريدة البصائر صفحتين ونصف في باب "منبر السياسة العالمية" لوصف ما أسمته "بطشة الاستعمار بجلالة سلطان المغرب سيدي محمد بن يوسف" وتوسط ذلك صورة بشعة للكلاوي مرتديا قبعة. كما خصصت بابها الدائم "في الشمال الإفريقي" إلى قضية السلطان. وهكذا يمكن القول أن البصائر قد خصصت عددا كاملا لأحداث المغرب التي كان يتصدرها خلع السلطان الشرعي³⁹.

كانت جريدة البصائر سباقة إلى نشر النداء الذي وجهه السلطان سيدي محمد بن يوسف من منفاه إلى الشعب المغربي داعيا فيه إلى مواصلة الكفاح وكاشفا فيه عن المؤامرة التي أبعدته عن العرش. وذاكرا أنه يشعر بالحرمان من مشاركة الشعب كفاحه. وقد جعلت البصائر عنوان النداء هكذا: "بمناسبة عيد العرش المغربي: سيدي محمد بن يوسف يدعو المغاربة إلى مواصلة الكفاح".

وقد اندمجت البصائر مع قضية المغرب اندماجا تاما، فلم تعد تكتب عن شيء بعيد أو تتعاطف مع قضية عادلة فقط، بل إنها أصبحت تكتب عما كان يحدث في المغرب باعتباره قضيتها الخاصة⁴⁰. ومن ذلك أنها خصصت إحدى افتتاحياتها لـ "الحوادث الرهيبة في المغرب الأقصى" تحدثت فيها عن خلع السلطان محمد الخامس وإرغام الشعب على قبول سلطان آخر وتشريد الزعماء الوطنيين⁴¹.

38 - أبو القاسم سعد الله، صورة الملك محمد الخامس في بعض الصحف الوطنية الجزائرية (1951-1956م)، ضمن: الندوة الدولية حول محمد الخامس الملك الراحل، مرجع سابق، ص. 379.

39 - جريدة البصائر 4 شتنبر 1953.

40 - بدون مبالغة يمكن القول إن ما كتب عن محمد بن يوسف في الصحف الجزائرية في هذه المرحلة لاسيما ما بين 1944-1956م على وجه الخصوص، يعد مفخرة للمغرب والمغاربة من حيث التعبير الصادق عن الأخوة والتضامن، وحظي ملك المغرب بالقسط الأوفر من الاهتمام باعتباره رمز الحرية والاستقلال، وباعتباره نموذجا قد يحفز الوطنيين الجزائريين على المضي قدما على درب الكفاح والنضال، هذه هي العبرة التي يمكن استخلاصها من الصورة التي رسمتها أقلام بعض رواد النهضة الثقافية في الجزائر أمثال إبراهيمي وتوفيق المدني وغيرهم كثير خاصة وأن كتاباتهم امتازت بعمق التفكير وبحسن التبليغ فكانت أحسن قدوة خلفها السلف للخلف.

عكاشة برحاب، محمد الخامس في الذاكرة الجزائرية، مرجع سابق، ص. 153.

41 - جريدة البصائر 29 يونيو 1955م.

ولم يكذب محل شهر دجنبر 1955م حتى خرجت البصائر لتعلن للناس عن العودة السلطانية السعيدة، وتذكر أن العلماء الجزائريين أرسلوا وفدا إلى المغرب لتهنئة السلطان بعودته إلى عرشه، وتعلن أن السلطان قد استقبل بكل حفاوة، ولذلك أعلن وفد العلماء بعد رجوعه إلى الجزائر شكره للسلطان "لما حبا به [أي جمعية العلماء] من عطف سام إذ افتتح به سلسلة مقابلاته السامية وقدمه على سائر الوفود"⁴².

رابعا: تضامن عربي واسع

أثارت مؤامرة عشرين غشت مجموعة من ردود الفعل الدولية والوطنية⁴³، فعلى المستوى العربي كانت مصر من بين أولى الدول التي نددت بهذه المؤامرة واعتبرت نفي السلطان محمد الخامس منافيا للأعراف والمواثيق الدولية، بل سارعت إلى تقديم يد العون والمساندة للمقاومة العسكرية المغربية، وفي هذا السياق أصدر شيخ الأزهر محمد خضر حسين فتوى تفسق الكلاوي ومناصريه عن ملة الإسلام لأنهم خانوا العهد والأمانة ورفعوا السلاح في وجه الإمام الشرعي⁴⁴.

من جهتها استهجنّت الجزائر مؤامرة نفي السلطان على لسان حزب الشعب الجزائري وأعربت عن تجريمها لهذا الإجراء الذي لم يزد الشعوب المغربية إلا تكافلا وتعاضدا ووحدة حتى نيل الاستقلال، وفي هذا السياق أفتى علماء الجزائر أن ملك البلاد الشرعي هو السلطان محمد الخامس⁴⁵.

42 - كان الوفد يتألف من الشيوخ: العربي التبسي "رئيسا" ومحمد خير الدين "نائب الرئيس" وأحمد توفيق المدني "الأمين العام" وعبد اللطيف سلطاني "أمين المالية". جريدة البصائر، 2 دجنبر 1955م.

جدير بالذكر أن ثورة الملك والشعب احتلت حيزا مهما في كتابات بعض القادة والزعماء الجزائريين، وهي عديدة نسوق من بينها على سبيل الذكر لا الحصر:

Ahmed Taleb Ibrahimi, *Mémoires d'un Algérien*, Tome1, Rêves et épreuves(1932-1956) Editions casbah Alger, 2006.

43 - أنس الصنهاجي، ردود الفعل الوطنية والدولية إزاء خلع السلطان محمد الخامس ونفيه، أعمال الدورة الثامنة عشر لجامعة مولاي علي الشريف، المرحلة الثانية من عهد سيدي محمد بن يوسف: 1939-1955م، منشورات وزارة الثقافة، مطبعة دار المناهل، 2016م، صص، 383-399.

44 - نفسه، ص. 396.

45 - جريدة الحوادث، العدد 3187، 28 غشت 1953م.

على صعيد آخر، اجتمعت أكثر من دولة عربية وقاموا بإرسال مذكرة مستعجلة إلى الهيئة الأمية استنادا إلى البند الأول من الفصل 35 من ميثاق المنظمة حيث اعتبروا أن مؤامرة نفي سيدي محمد بن يوسف خرقا سافرا لمعاهدة الحماية وإجراء يهدف إلى تهديد السلم والأمن العالمين. وقد اقترح الوفد العربي الآسيوي في هيئة الأمم المتحدة على ضرورة الاعتراف الدولي بالحقوق المشروعة للشعب المغربي في تقرير مصيره، كما طالب بفتح تفاوض جاد مع ممثليه للوصول إلى تسوية جذرية لهذا المشكل، كما أوصى المقترح بأن تتخذ خطوات لضمان رقي هذا الشعب في ظرف خمس سنوات مع ممارسة كامل حقوقه السيادية في ظل استقلاله. وقد كانت باكستان من أكبر المدافعين عن قضية المغرب ومن أشد المنتقدين للسياسة الفرنسية بالمغرب⁴⁶.

وفي 25 غشت 1953م أوصت جامعة الدول العربية⁴⁷ بضرورة تقديم السلاح اللازم للمقاومة المغربية كما حثت الحكومة العراقية شقيقاتها العربية على ضرورة اتخاذ موقف مما يجري في المغرب والعمل سويا على إحباط المؤامرات الفرنسية⁴⁸. وفي 25 يوليوز من السنة ذاتها التقى وزير الخارجية العراقي محمد فاضل الجمالي بالرئيس الأمريكي ايزنهاور في البيت الأبيض والتمس منه تقديم الدعم والمساندة للقضية المغربية والعمل على إرجاع السلطان محمد الخامس إلى عرشه. كما وجه الجمالي رسالة إلى علال الفاسي من القاهرة أكد فيها تضامن الشعب العراقي مع المغرب حتى نيل الاستقلال وعودة سلطان البلاد ظافرا منتصرا⁴⁹.

كانت دول الخليج سباقة إلى شجب مؤامرة نفي السلطان وتعيين ابن عرفة خلفا له، فقد اتخذت مثلا السعودية موقفا مشرفا من هذه المؤامرة، ولم تكتف باستنكار أفعال الحماية وتجريمها وحسب، بل رفضت حتى دخول ابن عرفة إلى الحجاز وذلك تضامنا مع إرادة الشعب المغربي وموقف الجامعة العربية الراضى للاعتراف بابن عرفة سلطانا على المغاربة⁵⁰. وفي نفس السياق

46 - El machat Samya, *Les Etats-Unis et le Maroc, Le choix stratégique(1945-1959)*, L'Harmattan, Paris, 1996, p.125.

Aussi, Azzou, el Mostafa, *Les Etats-Unis et le statut international du Maroc, 1906-1956*, In, *Guerres mondiales et conflits contemporains : revue d'histoire*. - N. 219, 2005, p. 103-112.

47 - مجدي حماد، جامعة الدول العربية، مدخل إلى المستقبل، سلسلة عالم المعرفة، عدد 345، نونبر 2007م.

48 - جريدة الحوادث العراقية، العدد 3277، 16 كانون الأول 1953م.

49 - محمد الأدهمي، مرجع سابق، صص. 374-379.

50 - عبد الكريم غلاب، مرجع سابق، ج2، ص. 585.

اتجهت سوريا التي شجبت مؤامرة نفي السلطان والتنكيل بالوطنيين المغاربة، وفي هذا الإطار قدم المندوب السوري في الأمم المتحدة يوم 28 غشت 1953م إلى ممثل فرنسا مذكرة احتجاج موضحة فيها ضرورة إعادة السلطان إلى عرشه وفتح مفاوضات مع ممثلي الشعب المغربي لحل الأزمة⁵¹.

وفي الأردن نظمت مجموعة من المظاهرات والاحتجاجات شارك فيها جميع فئات المجتمع الأردني للتنديد بمؤامرة خلع السلطان، وفي شهر شتنبر سنة 1953م انعقد المؤتمر الشعبي الأردني وناشد متدخلوه إخوانهم المغاربة العاملين في الجيش الفرنسي الانسحاب بشرف والالتحاق بصفوف جيش التحرير المغربي كما طالب الجامعة العربية الانسحاب من هيئة الأمم المتحدة إذا لم تعالج القضية المغربية⁵².

خاتمة

يبدو أن حدث خلع السلطان سيدي محمد بن يوسف عن عرشه ونفيه إلى خارج البلاد لم يكن بالحادث العادي في مخططات الآلة الاستعمارية الفرنسية، ذلك أن موجة من ردود الفعل الداخلية والخارجية أثرت على صورة فرنسا في المحافل الدولية، وسرعت من وتيرة المقاومة المسلحة، وأرغمت القائمين على القضية المغربية بضرورة إرجاع ملك البلاد الشرعي والشروع في مفاوضات الاستقلال.

51 - أنظر المحور الثاني.

52 - أنس الصنهاجي، مرجع سابق، ص. 397.

ومن الجدير بالذكر أن التضامن العربي الإسلامي مع القضية المغربية ترك صدًى واضحاً في المحافل الدولية حيث بقيت مطالب جامعة الدول العربية والكتلة الأفروآسيوية تخرج المجتمع الدولي وتضغط عليه لإيجاد حل للمسألة المغربية في أقرب الآجال.

برنار ستيفان، تاريخ الصراع المغربي الفرنسي، 1943-1956م، ترجمة حسان المعروفي، إفريقيا الشرق، البيضاء، 2014م. ص. 239.

حزب الإصلاح الوطني ونفي السلطان محمد الخامس: صور من التضحية والولاء الخالدين.

د. محمد الأندلسي

تطوان.

عرفت المنطقة الخليفية، في ظل الحماية الإسبانية، تأسيس مجموعة من الأحزاب السياسية الوطنية¹. ويُشكّل حزب الإصلاح الوطني الذي تأسس في أواخر سنة 1936م، الاستثناء الفريد والمُميّز، لاعتبارات منها، أولاً: كونه كان أول هيئة سياسية منظمة تأسست في منطقة الحماية الإسبانية، بعد المحاولات والتجارب المتراكمة لمأسسة العمل الوطني وهيكلته منذ العقد الأول من عهد الحماية²، وثانياً: أنه تأسس بإرادة وطنية حُرّة من قبل النخب المثقفة والغيورة في المنطقة، وليس بإيعاز ومبادرة من سلطات الحماية الإسبانية، التي كانت تسعى من وراء نهج سياسة تفريخ الأحزاب، خلق نوع من المنافسة وإيجاد التوازن للتحكم في نشاط الأحزاب السياسية المغربية واحتوائها³. فعمدت -في إطار هذه الاستراتيجية الاستعمارية- إلى تشجيع ودعم بعض النخب

- 1 - يتعلق الأمر بحزب الإصلاح الوطني، وحزب الوحدة المغربية، وحزب الوحدة الدينية، وحزب الدفاع الوطني، وغيرها.
- 2 - حدّد المؤرخ محمد ابن عزوز حكيم، تلك التجارب والمحاولات في سبع مراحل هي: المرحلة الأولى (1916 - 1930م): قادها الحاج عبد السلام بنونة "أب الوطنية المغربية"، وتميّزت بإعطاء الأولوية للحقل التربوي والتعليمي. المرحلة الثانية (1930 - 1931م): تميّزت بتأسيس الهيئة الوطنية السريّة الأولى، وتقديم وثيقة مطالب الأمة المغربية. المرحلة الثالثة (1931 - 1932م): تميّزت بتأسيس هيئة وفد مطالب الأمة. المرحلة الرابعة (1932 - 1933م): عرفت تأسيس الهيئة الوطنية بشمال المغرب المعروفة بالهيئة الثانية، وتميّزت أيضاً بتأسيس الهيئة التحضيرية لنظام حزب الإصلاح في 15 يناير 1933م، وتأسيس جمعية الطالب المغربية يوم 23 مارس 1932م. المرحلة الخامسة (1933 - 1936م): وهي مرحلة الكتلة الأولى أو أهل الديوان أو المركز. المرحلة السادسة (1936): الكتلة الثانية أو كتلة العشرين. المرحلة السابعة (1936 - 1956م): مرحلة حزب الإصلاح الوطني.
- أنظر: محمد ابن عزوز حكيم: وثائق الحركة الوطنية في شمال المغرب، مطبعة الشويخ، تطوان، 1980م، ج1، ص. 13 - 41.
- 3 - أنظر: عبد الرحيم برادة: إسبانيا والمنطقة الشمالية المغربية (1931 - 1956م)، ج2، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 2007م، ص. 240 - 241.

المثقفة في المنطقة، مُستغلة حالة عدم التوافق بينها في الرؤى والتصورات ومنهاج الاشتغال، فاقترحت عليها تأسيس أحزاب جديدة لحصر نفوذ حزب الإصلاح الوطني، وإحداث الانشقاق في الصف الوطني لإضعافه. وخير مثال على ذلك حزب الوحدة المغربية الذي أسسه الشيخ محمد المكي الناصري سنة 1937م.

وإذا ألقينا نظرة على القانون الأساسي لحزب الإصلاح الوطني، نجده يُنصُّ على الغايات الرئيسية من تأسيسه؛ والمتمثلة في الحصول على الاستقلال والحرية، وتحقيق الوحدة المغربية سياسيا ولغويا، واسترجاع سائر الحقوق الضائعة. وذلك من خلال التعاون مع الحكومة في سائر الإصلاحات والأعمال التي تتفق وتلك الغايات⁴.

وبعد تأسيسه يوم 18 دجنبر 1936م⁵، شرع حزب الإصلاح الوطني في ممارسة نشاطه السياسي والتعبوي في المنطقة، مُستفيدا من حالة الانفراج وسياسة الانفتاح والتسامح التي كانت تُبديها سلطات الحماية الإسبانية اتجاه التنظيمات السياسية المغربية، خلال فترة الحرب الأهلية الإسبانية (1936 - 1939م).

تزامن تأسيس حزب الإصلاح الوطني مع اندلاع الحرب الأهلية الإسبانية بين الجمهوريين واليمينيين بقيادة الجيش، وخلاها كانت سلطات الحماية الإسبانية في حاجة ماسة إلى دعم المنطقة الخليفة (قاعدة الثورة)، وهو ما يفسر سياسة الانفتاح والتعاون التي دَشَّنَهَا المقيم العام خوان بكيدير⁶ مع الأحزاب الوطنية في المنطقة، من خلال الاستجابة لبعض المطالب الوطنية، وتقديم مساعدات مادية ومعنوية للنشاط الوطني، والاعتراف بالأحزاب، وتأسيس الجمعيات، وحرية إصدار الصحف⁷. لكن هذا الربيع سرعان ما انتهى، وانكشفت سياسة الحكومة الفرانكوية الاستعمارية على حقيقتها، فبمجرد انتهاء الحرب الأهلية سنة 1939م، تم تعيين مقيم عام جديد هو

4 - محمد ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد، مطبعة الساحل، الرباط، 1980م، ص. 62 - 64.

5 - تجدر الإشارة إلى أن هيئة العمل الوطني كانت قد تقدمت - بواسطة الأستاذ عبد الخالق الطريس - بطلب الإذن بتأسيس حزب الإصلاح الوطني، إلى الخليفة السلطاني مولاي الحسن بن المهدي والمقيم العام الإسباني بكيدير بتطوان، بتاريخ 11 نونبر 1936م. أنظر النص الكامل لهذا الطلب في: محمد ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد، ص. 61 - 62.

6 - خوان بكيدير (Juan Beigbedir): تولى منصب المقيم العام في منطقة الحماية الإسبانية بالمغرب ما بين 16 أبريل 1937م و12 غشت 1939م.

7 - عبد الرحيم برادة: إسبانيا والمنطقة الشمالية من المغرب، ج1، ص. 255.

الجنرال أسينسيو⁸، ومن بعده الجنرال أوركاث⁹، اللذان شرعا في تضيق الخناق على الوطنيين ومحاصرة نشاطاتهم السياسية، مما دفع بهم إلى الردّ بإبرام الميثاق الوطني بين حزبي الإصلاح الوطني والوحدة المغربية، وتأسيس الجبهة القومية الوطنية المغربية يوم 18 دجنبر 1942م¹⁰. وقد أثمر هذا التحالف الاستراتيجي فيما بعد، تقديم وثيقة المطالبة بالاستقلال ووحدة المغرب الترابية يوم 14 فبراير 1943م¹¹. كما بادر حزب الإصلاح الوطني إلى تحرير مذكرة تأييد لوثيقة 11 يناير 1944م، يوم 29 فبراير 1944م¹².

وشهدت المرحلة التي أعقبت نهاية الحرب العالمية الثانية، توترا كبيرا بين الوطنيين والإقامة العامة الإسبانية التي كان على رأسها وقتئذ الجنرال باريل¹³، بسبب سياسة العنف والقسوة والتشدد التي طبقها في مواجهة المد الوطني، والتي استمرت إلى غاية تعيين المقيم العام بالينيو¹⁴، لتبدأ مرحلة جديدة من التعاون والتآزر الذي تجلّى بوضوح في موقف إسبانيا من الاعتداء على العرش يوم 20 غشت 1953م¹⁵.

نسعى من خلال هذه الورقة البحثية، إلى تسليط الضوء على الدور النضالي الذي اضطلع به حزب الإصلاح الوطني بالمنطقة الخليفية في أزمة العرش، واستجلاء مظاهر استماتته في الدفاع عن رمز وحدة البلاد وقائدها نحو الاستقلال جلاله المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه، من خلال

8 - كارلوس أسينسيو كبانيلاس (Carlos Asensio Cabanillas): تولى منصب المقيم العام في المغرب ما بين 12 غشت 1939م و12 ماي 1941.

9 - لويس أوركاث جولدي (Luis Orgaz Yoldi): تولى منصب المقيم العام الإسباني بالمغرب مرتين، ما بين 2 أكتوبر 1936م و16 مارس 1937م. وما بين 12 ماي 1941 و6 مارس 1945م.

10 - محمد ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد، ص 98 - 103.

11 - أنظر النص الكامل لهذه الوثيقة عند: ابن عزوز حكيم، وثائق تشهد، ص. 103 - 109.

12 - Jean Wolf : Les secrets du Maroc espagnol : L'épopée d' Abd- El- Khaleq Torrès (1910 - 1970), Paris - Casablanca, 1994, P 233.

13 - خوسي إنريكي باريل (José Enrique Varela): تولى منصب المقيم العام الإسباني في المغرب ما بين 6 مارس 1945م و1 أبريل 1951م.

14 - رفائيل غارسيا بالينيو (Rafael García Valiño): تولى منصب المقيم العام الإسباني بالمغرب ما بين 31 مارس 1951م و6 غشت 1956م.

15 - راجع مقالنا الموسوم بـ: "موقف إسبانيا من الاعتداء على العرش يوم 20 غشت 1953م"، مجلة دعوة الحق، عدد 429، ذو الحجة 1440هـ/ غشت 2019م، ص. 25 - 43.

كشفه لكل المخططات والدسائس والمناورات التي كانت تدبرها الإقامة العامة الفرنسية بتواطؤ مع بعض "الإقطاعيين والطُرقِيِّين"، وفضحها والتنديد بها وطنيا ودوليا. والوقوف على الجهود السياسية والدبلوماسية التي بذلها الحزب تعبيرا عن إخلاصه وولائه للعرش العلوي المجيد، ودفاعا عن المتربع على أريكته، إلى غاية عودته المظفرة إلى أرض الوطن يوم 16 نونبر 1955م.

1 - نضال حزب الإصلاح الوطني في التصدي لمؤامرة خلع السلطان محمد الخامس ونفيه.

ليس هناك شك في أن التحضير لعملية خلع السلطان محمد الخامس ونفيه خارج الوطن، بدأ منذ سنة 1947م، وبالتحديد بعد خطابه التاريخي بمدينة طنجة يوم 10 أبريل 1947م¹⁶، فجاء الرد الفرنسي في محاولة المقيم العام جوان لخلع السلطان في فبراير 1951م¹⁷، والتي باءت بالفشل، ليحلَّ الجنرال غيوم محل أستاذه جوان على رأس الإقامة العامة الفرنسية بالرباط، ويُنفَّذ المؤامرة التي رُسمت له، خاصة بعد مطالبة السلطان محمد الخامس الجمعية العامة للأمم المتحدة المنعقدة سنة 1952م بمراجعة معاهدة الحماية لسنة 1912م¹⁸.

فكيف تصدى حزب الإصلاح الوطني بالمنطقة الخليفية لمؤامرة عزل السلطان ونفيه سنة 1953م؟ وما الوسائل والأساليب السياسية والدبلوماسية التي اعتمد عليها في الدفاع عن السلطان محمد الخامس؟

1 - 1 - التحركات السياسية لحزب الإصلاح الوطني في مجابهة المؤامرة:

منذ انكشاف خيوط المؤامرة الفرنسية لعزل الملك ونفيه، قام حزب الإصلاح الوطني بحملة سياسية مكثفة مَبْنِيَّة على تَتَبُع ورَصْد دقيق لخطوات المتآمرين، من أجل اتخاذ القرارات الاستباقية الصحيحة والمدروسة لإجهاض تلك المخططات قبل تبلورها وتحقيقها لأهدافها، وبهذا الصدد تنبّه أعضاء الحزب إلى ما كانت تحيكه الإقامة العامة الفرنسية بمساعدة بعض "الإقطاعيين والطُرقِيِّين"

16 - دانييل ريفيه: تاريخ المغرب من مولاي إدريس إلى محمد السادس، ترجمة المهندس أحمد ابن الصديق، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، الطبعة الأولى، 2020م، ص. 318.

- María Concepción Ybarra Enríquez de la Orden : España y la descolonización del Magreb, rivalidad hispano - francesa en Marruecos (1951 - 1961), Madrid, 1998, p 123.

17 - Ibid.

18 - Ibid, pp 126 - 127.

الخونة، حيث ورد في مُذَكَّرَاتِ الأستاذ عبد الخالق الطريس ليوم 13 يناير 1953م، ما يلي: "علمت بالأمس أن اجتماعا تم بدار عبد الحي الكتاني بفاس حضره الكلاوي، وكان بدعوة إقامة حفلة شاي لغيوم. ومن الاجتماع المذكور ستبدأ لا محالة المؤامرة الجديدة حول خلع جلالة الملك، بدعوى خروجه عن الدين وتعاليمه [...]"، ويظهر أن الخلع سيوقعه عشرة من العلماء بوصفه إفتاء، ثم سيستدعى الباقي من العلماء للتوقيع والتأييد، ويقال إن الإدارة ربما تكون جادة في استعمال العنف مع كل من يمكن أن يمتنع عن التوقيع"¹⁹. وفي يوم 21 يناير أصبح أمر المؤامرة مكشوفاً للحزب، فكتب الأستاذ الطريس في مذكراته قائلاً: "إن أمر المؤامرة قد أصبح جلياً، فلا يجب أن نغفل عنه مطلقاً كي لا تفاجئنا الأحداث"²⁰. وبعد صدور ملتمس الإقطاعيين بنقض البيعة لجلالة الملك محمد الخامس يوم 18 مارس 1953م²¹، ردَّ حزب الإصلاح الوطني بتوجيه مذكرة إلى الخليفة السلطاني الأمير مولاي الحسن بن المهدي يوم 4 أبريل، يحذره فيها من المؤامرة التي تُحاك ضد السلطان، ويلتمس منه الإعلان عن تجديد البيعة للملك محمد الخامس باسم سكان المنطقة، وإشعار الحكومة الإسبانية بالخطر المُحدِّق الذي يهدد سلامة جلالة الملك وأمن البلاد: "وبعد، فليس بخاف على علم مولانا خبر المؤامرات العديدة التي تحاك ضد جلالة الملك سيدي محمد الخامس نصره الله من جانب الاستعمار الفرنسي بمساعدة بعض الخونة المارقين، من الإقطاعيين والمشعوذين، وقد عقدوا أخيراً عدة اجتماعات تدارسوا فيها أمر نقض البيعة لجلالة الملك وتنصيب غيره. وسواء كانت تدابيرهم ستؤدي إلى نتيجة أم لا، فالواجب الديني والقومي يفرض علينا أن نتقدم إلى سموكم، وأنتم نظراً لكثير من الأوضاع والحشيات أولى من يهتم بالأمر ويجهز بالحق في تأييد جلالة الملك وَيَشُدَّ عضده وَيُسِنِّدَ ظهره، لأن الاعتداء على جلالة الملك معناه بالضبط الاعتداء على العرش العلوي الذي نتعلق به ولا نرضى غيره، ومعناه بالضبط أيضاً تمزيق وحدة المغرب وإدماجه في عائلة أجنبية لا صلة روحية لنا بها لولا الظلم والاعتداء وتمديد الاحتلال [...]" وعليه فالملتمس من سموكم أبقاكم الله ذخراً للوطن والدين ما يلي:

19 - حسن الصفار: حزب الإصلاح الوطني 1936 - 1956م، دراسة تحليلية، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط1، الرباط، 2006م، ص. 187.

20 - نفسه.

21 - الملمس نشر في الصحف الاستعمارية بالمنطقة السلطانية يوم 8 أبريل 1953م.

أولا - أن تعلنوا من جديد - باسم أهالي هذه المنطقة - ولاءكم لجلالة الملك سيدي محمد الخامس وتعلقكم به، وحرصكم على احترام مكانته ومقامه، وتحذيركم الخونة والمتآمرين من مغبة الفتنة وتدبيرات السوء.

ثانيا - أن تساعدوا الشعب في هذه المنطقة ليتمكن من التعبير عن وجهة نظره، ويقوم بواجبه الكامل في خدمة العرش العلوي الكريم، وشخص الجالس عليه حفظه الله من مكر الماكرين.

ثالثا - إشعار الحكومة الإسبانية بالأمر وتنبيهها للأخطار التي يمكن أن تتركب على نجاح المؤامرة ضد جلالة الملك، والوساطة معها لتقف إلى جانب الشعب المغربي في هذه الأزمة التي يعانيتها، وإلى جانب جلالة الملك الشرعي للمغرب.²²

لقد أحدثت هذه المذكرة صدى كبيرا في الداخل والخارج، بفضل التحركات النشيطة لأعضاء الحزب، واتصالاتهم وتنسيقهم الدائم مع زعماء الحركة الوطنية في الجنوب، بل وحتى مع جلالة الملك محمد الخامس، الذي ألحَّ عليهم على ضرورة إحداث ضجة في الخارج.²³

وبعد انعقاد مؤتمر الطُرُقِيِّين بفاس ما بين 4 و6 أبريل، برئاسة عبد الحفي الكتاني²⁴، وردَّاً على مُلتمس "الإقطاعيين"، أصدر حزب الإصلاح الوطني بيانا مُوجَّهاً إلى الشعب المغربي يوم 7 أبريل²⁵، أكَّد فيه على ارتباط الشعب المغربي ببيعة جلالة الملك محمد الخامس، ما دام مُقيما لشروط البيعة ومُلتزما بها: "إن الشعب المغربي وفي مقدمته جبهة أحزابه الوطنية، مرتبط ببيعة جلالة الملك نصره الله، ارتباطا لا يفصمه إلا هتك جلالته لحرمت الدين، أو تخليه عن واجباته كَرَّاعٍ مسؤول"²⁶.

22 - ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد، ص. 141 - 142 / موقف شمال المغرب من الاعتداء على العرش يوم 20 غشت 1953م، مطابع الشويخ، تطوان، ج1، 1984م، ص. 126 - 128.

23 - ابن عزوز حكيم: موقف شمال المغرب، ص. 136.

24 - في إطار الرد على هذا المؤتمر (مؤتمر الطرق الصوفية بشمال إفريقيا)، قام وفْدٌ يُنَوِّبُ عن علماء فاس بزيارة للملك محمد الخامس بالرباط يوم 8 أبريل، للتعبير عن استنكارهم لما قام به عبد الحفي الكتاني. كما يُستشف من تزامن نشر ملتمس الإقطاعيين في الوقت الذي انتهى فيه مؤتمر الطريقين بفاس، أن المقيم العام كيوم كان يتأهب لتنفيذ مؤامره ضد جلالة الملك. أنظر: ابن عزوز حكيم: موقف شمال المغرب، ص. 139.

25 - يؤكد المؤرخ ابن عزوز حكيم أن هذا البيان قد تم تحريره يوم 2 أبريل، غير أنه لم ينشر لأسباب نجهلها، والتي ربما لها علاقة بالخبر الذي أذيع يوم 3 أبريل مفاده أن مؤتمر للطريقين سينعقد بفاس يوم 4 إلى 6 من نفس الشهر، ففضل حزب الإصلاح الوطني الانتظار إلى أن يعرفوا نتيجة المؤتمر المذكور. أنظر: موقف شمال المغرب، ص. 125.

26 - ابن عزوز حكيم: موقف شمال المغرب، ص. 134.

واعتبر الاعتداء على حرمة العرش من قبل الأقلية المأجورة، اعتداء من الحماية الفرنسية على جلالة الملك، ومخالفة لبنود عقد الحماية، واستبدادا بالأغلبية الموالية لجلالته: "وعلى هذا فأى اعتداء من الأقلية الضالة المأجورة المجرمة على حرمة العرش المغربي، معناه في الحقيقة والواقع اعتداء صارخ من الحماية الفرنسية على جلالة الملك، ومخالفة لعقد فاس، واستبداد بالأغلبية الساحقة التي تُوالي جلالة الملك على طول الخط، والتي لن ترى ما يبرر بيعتها وولاءها لأي خلف يغتصب العرش محميا بالحَرَابِ الأجنبية"²⁷. كما أكد على ارتباط المنطقة الخليفية وتشبثها بوحدة المغرب وبولائها للعرش العلوي، ورفضها الإذعان لإرادة الإدارة الفرنسية وأتباعها، والاحتجاج على الحكومة الفرنسية التي تسمح لإدارتها في جنوب المغرب بنشر الفتنة وتهديد سلامة جلالة الملك، وعلى استعداد الشعب المغربي - في المنطقة الخليفية - للتضحية في سبيل الدفاع عن جلالة الملك ونُصْرَتِهِ: "نحن الذين نمثل الشعور الوطني، ونحظى بثقة المواطنين في هذه المنطقة، التي تكون جزءا لا يتجزأ من المغرب الكبير، وتُدينُ بالولاء للعرش العلوي، نرفع أصواتنا احتجاجا ضد الحكومة الفرنسية، التي تسمح لإدارتها بجنوب المغرب، لتعرض على الفتنة والظلم والطغيان، بحمايتها للمجرمين في عملهم العدائي ضد عاهل البلاد جلالة الملك محمد الخامس نصره الله"²⁸.

ومباشرة بعد صدور هذا البيان، وفي اليوم الذي يليه أي 8 أبريل، أصدرت الإقامة العامة الفرنسية بالرباط بيانا تكذيبيا تتهم فيه الأحزاب الوطنية وبالتحديد حزب الإصلاح الوطني بالترويج للإشاعات²⁹. واعتبر زعماء الحركة الوطنية في الشمال كما في الجنوب، صدور هذا التكذيب الرسمي، نقطة تحسب لهم في معركة إحباط مساعي الاستعمار الفرنسي وأذنا به من الخونة، وخطوة إلى الوراء وتقهقرا منهم³⁰.

وابتداء من يوم 16 أبريل بدأ التحضير لتحرير وثيقة تجديد البيعة لجلالة الملك محمد الخامس، حتى تكون سندا شرعيا يُجسّدُ الإرادة الشعبية، للرد على عرائض ومُلْتَمَسات الخونة. واتفق الأستاذ عبد الخالق الطريس - الذي اقترح هذه الفكرة - مع أعضاء الحزب، على إبقاء الأمر طيّ الكتمان، إلى

27 - المصدر نفسه، ص. 134.

28 - المصدر نفسه، ص. 135.

29 - المصدر نفسه، ص. 138.

30 - المصدر نفسه، ص. 138 - 139.

حين نشر الوثيقة رسمياً يوم 29 أبريل، حتى لا تعتقد السلطات الإسبانية أن الحزب هو من يقف وراء هذه الخطوة، فتُعَارِضُهَا³¹.

وتضمن نص وثيقة تجديد البيعة، التأكيد على استمرار البيعة الشرعية العامة لجلالة الملك محمد الخامس، وعلى أحقيته وأهليته وكفاءته في تحمل المسؤولية. وعلى أن عُرِى تلك البيعة العامة لا تنفصم ولا تُبَلَّى حتى تحتاج إلى تجديد، خاصة وأن السلطان قد قَدَّمَ الدليل والبرهان على استحقاقه لها، من خلال مواقفه الاستقلالية الشجاعة والجريئة التي أَيْدَهَا الشعب المغربي والأمة الإسلامية قاطبة. ثم أبرزت الوثيقة الدوافع والبواعث من وراء تجديد البيعة، والمتمثلة في التصدي لمناورات "رؤوس الفتنة"، والردِّ عليها وإعلان البراءة منها. ومما جاء فيها: "وإننا نُصَارِحُكم يا مولانا الإمام، بأن بيعتكم الشرعية لا زالت في سُويْدَاءِ القلوب محفوظةً مَرَعِيَّةً، لم تُبَلَّ حتى تحتاج إلى تجديد، ولم نَحْمُ حولها أفكار الزائفين حتى تتزعزع أو تفتقر لتوطيد، ولكننا سمعنا جماعة، لم تذكر في غير ميادين الجور والشعوذة والمكر، خافت على نفسها من وقوفكم مع الحق، الذي دام عندها مهضوما، ونصرتكم للشعب الذي عاش بيدها مظلوما، أن تندحر وتنكسر، فقامت تعتمد على الأجانب، وتراوغ مراوغة الثعالب، تدعي نيابتها عن الشعب، والله يعلم والأمة تشهد بأن هذا القول كاذب، بل لا تُتَوَّبُ إلا عن بطونها وجيوبها، تتأمر في الظلام، وتروم -لا حقق الله لها مَرَاماً- أن تفسخ بيعة من اتخذته الأمة بالإجماع إماما. وإننا ننبأ من عمل تلك الجماعة، ونُقِرُّ لأمير المؤمنين مولانا محمد الخامس بالسمع والطاعة، [...] ونُعلن لكم أن الأمة المغربية ترى فيكم بجميع شروط الإمامة الشرعية متوفرة، وتراكم قائمين بجميع ما تحملتم به من أمانة كبرى ومسؤولية عظمى وفق الطاقة البشرية، وتُقَدِّرُ مكافحتكم في سبيل سعادة المغرب وحرية واستقلاله [...]"³².

بهذه الخطوة النضالية الاستباقية، أصبح كل ما تحبكه فرنسا بالجنوب ضدا على السلطان لا ينطبق انطباقا آليا على المنطقة الشالية³³.

31 - ابن عزوز حكيم: موقف شمال المغرب، ص. 148.

32 - المصدر نفسه، ص. 163 - 166.

33 - جان وولف: ملحمة عبد الخالق الطريس، حقيقة الحماية الفرنسية والإسبانية، تعريب الدكتور محمد الشريف، منشورات جمعية تطاون - أسمير، سلسلة ترجمات 3، تطوان، 2003م، ص. 262. / حسن الصفار: حزب الإصلاح الوطني، ص. 191 - 192.

وبعد حوالي شهر من عملية تجديد البيعة، عمل حزب الإصلاح الوطني على إصدار "بلاغ من علماء المغرب" بالمنطقة الخليفية بتاريخ 31 ماي 1953م، احتجاجا على عريضة المتآمرين من البشوات والقواد الذين يطالبون بخلع جلالة الملك محمد الخامس، مُتطاولين على مَقَامٍ لم يُعْطَ لهم شرعا وهو من اختصاص العلماء الممثلين الحقيقيين الذين لهم الحق في التعبير عن إرادة الشعب فيما يخص علاقاته بالملك. والتمس علماء المغرب من الشعب والعالمين العربي والإسلامي والمسيحي، ومن الضمير العالمي مُساندة العرش المغربي ومُناصرة التقاليد الإسلامية العريقة الممثلة في شخص جلالة الملك محمد الخامس³⁴.

وكانت آخر خطوة سياسية خطاها حزب الإصلاح الوطني في طريق التصدي للمؤامرة الفرنسية التي باتت قاب قوسين أو أدنى، هي إصداره لبيان 16 غشت 1953³⁵، للردّ على إعلان المتآمرين عن بيعة محمد بن عرفة كأمر للمؤمنين يوم 15 غشت، حيث عبّر الحزب باسم المغاربة قاطبة عن استغرابه ودهشته من هذا القرار الذي يفتقد للشرعية الدينية والقانونية فضلا عن الإرادة الشعبية، ويناقض إجماع الأمة ويخالف التقاليد الإسلامية المتوارثة في العائلات الملكية منذ حوالي ثلاثة قرون. معتبرا هذا القرار تمهيدا لخلع السلطان وتنصيب آخر غير شرعي يُسهّل على فرنسا توطيد استعمارها "وسلخ المغرب من شخصيته الدولية وإدماجه في الاتحاد الفرنسي". كما عبر الحزب عن استنكاره ورفضه ادعاء الإقامة العامة الفرنسية بأن السلطان قد استجاب للإصلاحات المقترحة من قِبَلِهَا ووقَّعَهَا. وعموما تضمن البيان النقاط الآتية:

- أولا: يشهد العالم أجمع على خرق فرنسا لتعهداتها للمملكة المغربية.

- ثانيا: يعلن احتجاجه الصارخ ضد الاعتداءات المتوالية ضد جلالة الملك وشعبه الأعزل.

34 - حسن الصفار: حزب الإصلاح الوطني، ص. 189. / روم لاندو: محمد الخامس منذ اعتلائه عرش المغرب إلى يوم وفاته، تعريب ليلي أبو زيد، منشورات دار الآفاق الجديدة، الطبعة الأولى، بيروت، 1979م، ص. 93.

35 - البيان ورد مؤرخا عند ابن عزوز حكيم بـ 16 غشت 1953م، بينما وجدنا ترجمته بالإسبانية في كتاب "إسبانيا وإنهاء استعمار المغرب الكبير"، مؤرخا بـ 19 غشت 1953م. أنظر: ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد، ص. 143 - 145.

- María Concepción Ybarra Enríquez de la Orden : España y la descolonización del Magreb, rivalidad hispano - francesa en Marruecos (1951 - 1961), Madrid, 1998, pp 145 - 146.

ويعتبر فرنسا المسؤولة وحدها عن الوضع الشاذ الذي سبَّب الفتنة في البلاد، وعن دماء الأبرياء التي تراق على يد حراسها وجيوشها، كما أنها مسؤولة عن حياة جلالة الملك وسلامة عائلته.

- ثالثا: يُهَيَّبُ بالشعب المغربي أن يقف وقفة رجل واحد في الدفاع عن الملك الذي نؤكد له ولاءنا التام وتأييدنا المطلق، وعن الوجود المغربي، ويقاوم بكل الوسائل أي شيء يفرض عليه سلطة كان أم تشريعا.

- رابعا: يُلَفِّتُ نظر الشعب المغربي إلى المناورات المكشوفة التي يرمي الاستعمار من ورائها إلى فسخ حبال العطف والولاء التي تربط جلالة الملك المفدى برعيته الوفية.

- خامسا: يتوجه إلى البلاد الشقيقة بلاد العروبة والإسلام، بالاستغاثة في هذا الظرف الذي تجتازه البلاد [...]

- سادسا: يطالب هيئة الأمم المتحدة [...] أن تتدخل في المشكل القائم بيننا وبين فرنسا، وأن تسعى لرد الطمأنينة إلى قلوب هذا الشعب الحزين وتمكنه من حكم نفسه بنفسه، وفاء للميثاق، وحماية للضعيف، وتنفيذا لتوصيتها في الدورة السابقة.³⁶

2 - التحركات الدبلوماسية لحزب الإصلاح الوطني:

إلى جانب تحركاته السياسية لإحباط المخطط الاستعماري لخلع السلطان محمد الخامس، لم يأل حزب الإصلاح الوطني جُهدا على المستوى الدبلوماسي الخارجي، حيث اتصل بكل الجهات العربية والإسلامية والدولية، في محاولة لوقف تنفيذ المؤامرة الفرنسية. فعلى المستوى العربي، استثمر الحزب تواجد عدد من الزعماء الوطنيين المغاربة بالقاهرة كعلال الفاسي ومحمد حسن الوزاني ومحمد المكي الناصري ومحمد بن عبد الكريم الخطابي، لإطلاع الجامعة العربية على تطورات الأحداث في المنطقة السلطانية من المغرب، ومطالبتها بالتدخل والضغط على فرنسا. ففي يوم 5 أبريل 1953م، اجتمعت اللجنة السياسية للجامعة العربية بالقاهرة لبحث مسألة المغرب العربي، واستمعت أولا إلى ممثلين عن المغرب، الذين شرحوا حالة المنطقة السلطانية من ناحية الإجراءات التي تقوم بها الإقامة العامة الفرنسية من أجل فرض الحكم المباشر في إدارة البلاد³⁷. كما وجه الحزب عدة برقيات إلى

36 - ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد، ص. 143 - 145.

37 - ابن عزوز حكيم: موقف شمال المغرب، ص. 130.

أمينها العام عبد الرحمان عزام باشا، حيث جاء في إحداها: "بعد التحية والتقدير، نرجو إطلاع أعضاء اللجنة السياسية أن الحالة السياسية بالمغرب أصبحت في غاية الخطورة، فالملك مهدد بإرغامه على التنازل عن العرش، والحركة الوطنية تنتظر ابتداء العنف بين حين وآخر، والتدخل لتفادي الكارثة مُتعين، والوقاية أفضل من العلاج، والرأي العام هنا متطلع إلى نتائج جهودكم والسلام"³⁸. وعلى المستوى الدولي، كان الأستاذ المهدي بنونة صِلَّةً وَصِلَ بين الحزب (الأستاذ عبد الخالق الطريس) ومنظمة الأمم المتحدة، والذي حاول من خلال اتصالاته المكثفة، إقناع الكتلة الآسيوية - الإفريقية، بتبني شكوى الوطنيين المغاربة ورفعها إلى مجلس الأمن الدولي للتصويت عليها، وقد نجح في ذلك، حيث اجتمعت الكتلة يوم 13 أبريل لدراسة القضية المغربية، وبهذا الصدد يقول الأستاذ المهدي بنونة في تقريره: "[...] وقد تمت المناقشة نهائيا في نص الرسالة التي سترفع إلى مجلس الأمن، وتم التوقيع بالحروف الأولى على النص بعد تعديله، ومن المهم أن نلاحظ أن تايلاند قد أعلن مندوبها أنه تلقى تعليمات نهائية لتوقيع الرسالة مع الجميع، وقد صفق له أعضاء الكتلة، وكذلك أعلن الرئيس [أحمد البخاري] أن الحبشة أيضا وافقت على توقيع الشكوى، وبذلك أصبح عدد أعضاء الكتلة 16، ووقعوا جميعا على الشكوى، وهذا مهم للغاية."³⁹ إلا أن مجلس الأمن امتنع عن التصويت لصالح المغرب⁴⁰، بسبب ضغوط القوى الاستعمارية الممثلة في بريطانيا وهولندا وتقصير الولايات المتحدة التي كانت تراعي شعور حليفها فرنسا في الحلف الأطلسي⁴¹.

3 - موقف حزب الإصلاح الوطني بعد تنفيذ مؤامرة خلع السلطان محمد الخامس ونفيه.

بعد تنفيذ الإقامة العامة الفرنسية لمؤامرتها ضد جلالة الملك محمد الخامس يوم 20 غشت 1953م، مُتَحَدِّيةً بذلك الإرادة الشعبية في المغرب من جهة، والمعاهدات والاتفاقيات الدولية من جهة أخرى، قام حزب الإصلاح الوطني بحملة سياسية ودبلوماسية جديدة للتنديد بهذا الاعتداء الشنيع على الشعب المغربي ومقدساته، والسعي لدى الجهات العربية والإسلامية والدولية للتدخل من أجل وقفه. ونظرا لكثافة الأحداث وتتابعها بشكل يومي، يعكس التحركات والأنشطة المكثفة التي بادر

38 - حسن الصفار: حزب الإصلاح الوطني، ص. 190.

39 - ابن عزوز حكيم: موقف شمال المغرب، ص. 145 - 146.

40 - Espana y la decolonizacion del Magreb, p 140.

41 - Ibid, p 141.

- روم لاندو: محمد الخامس، ص. 89.

إليها حزب الإصلاح الوطني دفاعاً عن الملك محمد الخامس، أثّرنا التركيز على أهم المحطات النضالية، مادامت تلك التحركات كلها تَصُبُّ في جبهة واحدة هي: "بقاء المنطقة الشمالية مُتَمَسِّكَةً بالمشروعية"⁴²، ومُنَاشِدة المنتظم الدولي للتدخل والضغط على فرنسا وإرغامها على العودة إلى الصواب. ولعل أهم تلك المحطات النضالية -من وجهة نظرنا- الخطاب الذي ألقاه الأستاذ عبد الخالق الطريس بجامع الكبير بتطوان يوم 21 غشت -الذي تصادف مع يوم عيد الأضحى، حيث قاطع سكان المنطقة الشمالية الاحتفال بهذه المناسبة الدينية، واستمر الخطاب في الدعاء للملك الشرعي محمد الخامس- الذي أعلن فيه عن تشبث سكان الشمال بولائهم وإخلاصهم للملك الشرعي، وانتقد موقف الفرنسيين، وأهاب بالشعب للنهوض من أجل إنقاذ الوطن⁴³. وأعقب ذلك الخطاب خروج مظاهرة حاشدة يتقدمها الشباب الذي يحمل صورة الملك محمد الخامس، مُحَاطَةً بالأعلام المغربية، ثم اللجنة المركزية واللجنة الفرعية للحزب، وحوالي خمسة آلاف من المتظاهرين⁴⁴.

كما عَوَّلَ حزب الإصلاح الوطني، على مستوى الجبهة الخارجية الدبلوماسية، على دعم إسبانيا ومساندتها للمغرب في هذه المحنة التي أَلَمَتْ به⁴⁵، ولم يأل جهداً في مناشدة المنتظم الدولي وخاصة هيئة الأمم المتحدة، التي بعث إليها بيان يوم 23 شتنبر، يطالبها بإرسال لجنة تحقيق في عزل الملك محمد الخامس⁴⁶. وإلى جامعة الدول العربية التي بعث ببرقية إلى أمينها العام جاء فيها: "إن خلع محمد الخامس عن عرش المغرب يعتبر ضربة كبرى ومحنة عظيمة لم تصب المغرب الكليم وحده، بل أصابت العروبة والإسلام في الصميم. والمغرب ينتظر منكم عملاً إيجابياً قوياً لإرغام فرنسا بكل سبيل على إعادة الملك لعرشه، ومراجعة سلوكها الأخرق إزاء المغرب وملكه الشرعي الوحيد"⁴⁷.

وتُعَدُّ المذكرة التي رفعها الحزب إلى سمو الخليفة السلطاني مولاي الحسن بالمهدي بتاريخ 25 شتنبر، والتي تقضي بوجوب المناذاة به وَصِيّاً على العرش إلى حين عودة الملك الشرعي محمد

42 - ابن عزوز حكيم: لمحات من حياة المجاهد الأستاذ الحاج الطيب بنونة، مطبعة الساحل، الرباط، 1981م، ص. 65.

43 - ملحمة الطريس، ص. 270.

44 - حسن الصفار: حزب الإصلاح الوطني، ص. 192 - 193.

45 - راجع مقالنا في مجلة دعوة الحق.

46 - ملحمة الطريس، ص. 270.

47 - الصفار، ص. 193.

الخامس، من أهم الخطوات النضالية التي حاول بواسطتها الحزب قطع الطريق على فرنسا والحيلولة دون جنيها لثمار عملية عزل الملك الشرعي، وذلك بتعيين وصي على العرش بعيد عن أعين فرنسا ولا يأتمر بأوامرها، مع بقاءه مرتبطا بالبيعة للسلطان إلى حين عودته، وذلك بدلا من ابن عرفة الذي كان دُمِيَّةً فرنسية على العرش لا أقل ولا أكثر⁴⁸، ووضع حد فاصل أمام المطامع الإسبانية في المنطقة⁴⁹.

وعموما استهلت المذكرة، بالتنويه بموقف الخليفة السلطاني من المؤامرة، والإشادة بالموقف الإسباني، والتنبيه على أن بيعة ابن عرفة -من طرف أقلية قليلة- تمت بالضغط والإكراه. ثم تطرقت المذكرة للوضعية القانونية للمنطقة الشمالية في ظل هذه الظروف المستجدة: "ونظرا للموقف الشاذ الذي أصبح فيه المغرب باعتباره وحدة سياسية لا يمكن أن يقوم فيه سوى سلطان شرعي واحد، [...] وحيث إن كل ما من شأنه تجزئة البلاد إلى جزأين يعتبره المغاربة مَسَاساً بوحدة التراب المغربي. وحيث إنه لا يمكن تصور وجود مَلِكَيْنِ شرعيين لبلد واحد. [...] وحيث إن محمد الخامس لم يتنازل عن العرش ولا يزال متمسكا لحقه في العودة إليه. فإن المناداة بسمو الخليفة المعظم مولاي الحسن بن المهدي بن إسماعيل وصياً على عرش المغرب، ومبايعته على ذلك من طرف كل مغربي يملك حرية التصرف في نفسه، يعتبر الحل القانوني للمشكلة القائمة، [...] وسيكون للوصي - بصفته الجديدة- حق التكلم باسم المغرب كُلِّهِ لا فرق بين شماله وجنوبه، وتجمع حوله قلوب المغاربة أجمعين، [...] ونظرا لظروف المغاربة القاطنين بالمنطقة السلطانية التي تَحُولُ بينهم وبين التعبير عن رأيهم بصراحة، فإن مغاربة المنطقة الخليفية يمكن لهم أن يعلنوا رسمياً، وعلى رأسهم خليفة جلالة الملك، عدم شرعية كل ما حدث، مؤكدين ولاءهم ومجديدين بيعتهم"⁵⁰.

وحرص حزب الإصلاح الوطني على استمرارية الاحتفال بذكرى عيد العرش يوم 18 نونبر من كل سنة، كتعبير عن ولاء المغاربة وتعلقهم بملكهم الأوحده محمد الخامس، وبهذا الصدد نُطالِع في جريدة الأُمَّة لسان الحزب، تَغْطِيَّةً شاملة للمهرجانات الخطابية التي كانت تُقَامُ وتُنظَّم احتفاء

48 - الصفار، ص 195.

49 - عن المؤامرة الإسبانية بتعيين الخليفة السلطاني ملكا على شمال المغرب، ودهاء حزب الإصلاح، وذكاء الخليفة، راجع: ملحة الطريس، ص 273.

50 - ابن عزوز حكيم: وثائق تشهد، ص. 148 - 149.

بهذه المناسبة المجيدة؛ ففي عددها الصادر يوم 19 نونبر 1953م، نقراً: "احتفلت البلاد المغربية، التي ما زالت تعتبر صاحب العيد ملكاً شرعياً للمغرب الأقصى، الذي تكالبت عليه قوى الشر وأبعدته عن عرشه ووطنه وأمته. والناظر إلى هذه الاحتفالات ليرى أن المغاربة مُتَعَلِّقُونَ أَشَدَّ التعلق بملكهم الأوحد، الذي عاهد الله على أن لا يحيد قيد شعرة على ولوج أبواب السعادة والرفاهية لهذا الشعب"⁵¹.

خاتمة:

أبان حزب الإصلاح الوطني، من خلال دفاعه المستميت عن جلالة الملك محمد الخامس، وتصديه لكل المؤامرات الاستعمارية التي كانت تُحاك ضده، وتستهدف الانتقام منه، بسبب مواقفه الاستقلالية الجريئة، ووقوفه جبلاً شامخاً، صامداً في وجه المخططات "الإصلاحات" الفرنسية، التي تروم سلخ المغرب عن هويته الدينية وشخصيته الدولية، وإدماجه في الاتحاد الفرنسي، أبان عن وطنية صادقة، وتعلّق كبير بإمامه ورمز وحدته الوطنية والترايبية، وعن استعداداته للتضحية في سبيل الوفاء لبيعته الثابتة بالغالي والنفيس. كما يُستشف من خلال التحركات السياسية والدبلوماسية للحزب، حجم تجربته السياسية والنضالية في إدارة المعركة ضد واحدة من أكبر القوى الاستعمارية في العالم آنذاك.

ومن إيجابيات الاستراتيجية النضالية لحزب الإصلاح الوطني خلال هذه المرحلة، اعتمادها على التشاور والتنسيق مع كل الأحزاب الوطنية وهيئات العلماء في المنطقتين الخليفية والسلطانية، وهو دليل على وضعه المصالح العليا للوطن فوق أي اعتبار، ونبذه بالعراء كل الحسابات السياسية الضيقة. كما حرص هذا الحزب الوطني على الاتصال برائد الحركة الوطنية المغربية جلالته الملك محمد الخامس طيب الله ثراه، رغم الحصار الشديد الذي كان مضروباً عليه من قبل السلطات الفرنسية لمنع من التواصل مع زعماء الحركة الوطنية، وتزويدهم بتوجيهاته وآرائه السديدة والنيرة.

51 - محمد البغيال (الأندلسي): تخليد الصحافة في المنطقة الخليفية لذكرى عيد العرش المجيد، مجلة دعوة الحق، عدد 418، شوال 1437هـ/ يوليوز 2016م، ص. 87.

خطاب محمد الخامس في محاميد الغزلان بين ترسيخ الوحدة الوطنية واستمرارية المقاومة

ذ. محمد امراني علوي

الكلية المتعددة التخصصات - الرشيدية

تعد الرحلات والزيارات التي يقوم بها الملوك والسلاطين إلى عدة مناطق، وأجزاء من أراض سلطتهم، أداة تواصل وترابط بين المركز وهذه المناطق، إلى جانب كونها وسيلة أساسية للاطلاع، والتعرف على أحوال السكان الاقتصادية، والاجتماعية، بالإضافة، لكونها توجه عدة رسائل، وتحمل العديد من الدلالات، وأهمها وجود وتفعيل سلطة السلطات عليها، وتأكيد تبعيتها له، وأحيانا أخرى بهدف توطيد أركان السلطة وفي أوقات أخرى تكون من أجل تفقد أحوال الرعية، وهذا ديدن الملوك والسلاطين العلويين منذ تمت بيعتهم إلى اليوم، - منذ عهد المولى محمد إلى عهد محمد السادس - ولعل ما يروج على الألسن، أن الحسن الأول لكثرة رحلاته وتنقلاته أنه توفي على ظهر فرسه، ولذلك لم تكن رحلات وتنقلات المغفور له محمد الخامس وليدة صدفة أو ظاهرة مبتكرة، بل عمل أصيل في سياسة الملوك والسلاطين العلويين، لكن ما ميز المغفور له محمد الخامس عن غيره، أنه كان يتحدى الاستعمار، ويقوم بعدة رحلات وزيارات لمناطق من التراب الوطني رغم امتعاض السلطات الاستعمارية، واستمرت إلى حدود حصول المغرب على الاستقلال، عاملا (السلطان محمد الخامس) على إحياء هذه السنة الحميدة، رغم أنها كانت ذات خصوصيات مخالفة في سياقها ودلالاتها لما سبقتها، وقد كان من بين الرحلات المتميزة في عهده رحلة محاميد الغزلان، ذات الدلالات والمعاني الكثيرة، فما هو سياقها ودلالاتها: وكيف ساهمت في ترسيخ الوحدة الوطنية، وربط ماضي المغرب بحاضره، وحاضره بمستقبله؟ وكيف أسهمت في ترسيخ التوعية الشاملة للاستمرار في الكفاح من أجل استكمال الوحدة الترابية للمملكة؟.

محمد الخامس واستراتيجية الزيارات الإقليمية:

اهتم السلطان محمد الخامس بشؤون الأمة المغربية منذ تحمل مسؤولية الحكم في المغرب رغم حداثة سنه، حيث تميز ببعد نظر كبير، ولذلك كثيرا ما اصطدم مع الإدارة الاستعمارية خصوصا عندما وضع نصب عينه مصالح الدولة والشعب من أهم أولوياته، وهذا ما يستشف من خطابه التاريخي بطنجة عندما قال "ولنشمل كل النواحي المغربية بكامل رعايتنا، برهنا بالوقوف على كل شؤونها على جميل عنايتنا ما تنقلنا عند كل مناسبة إلى كل جهاتها من مغربها إلى المشرق"¹.

وما ذكر في النص أعلاه كان من بين الأولويات الأساسية في سياسته، لذلك كانت كل الزيارات، والرحلات التي يقوم بها داخل الوطن، أو خارجه، إلا وحدد لها هدفا آتيا، بالإضافة إلى هدف بعيد المدى، ويتضح ذلك من خلال رسائل ودلالات تلك الرحلات والزيارات، ولابد من الإشارة إلى بعض المحطات البارزة في هذا المجال إذ نذكر على سبيل المثال منها زيارة السلطان إلى فاس في ماي 1934م، وما عرفته هذه الزيارة من رسائل سياسية قوية، جعلت فرنسا تتدخل بشكل مباشر لتجعل لها حدا، مضطرة إلى إيقافها، وذلك لكون أهل فاس نظموا على شرفه مظاهرات سرعان ما تحولت إلى شعارات مناوئة للاستعمار الفرنسي، وقد كان في ذلك للصحافة الوطنية وفي مقدمتها جريدة L'Action du Peuple (عمل الشعب) الدور الحاسم إذ رحبت بـ "العاهلين المغربيين" وكان المقصود بهما محمد بن يوسف ونجله مولاي الحسن، وذهبت هذه الصحافة إلى نعت الأمير الذي لم يكن عمره يتجاوز خمس سنوات بـ "ولي العهد" الشيء الذي كان يحمل أكثر من دلالة"². ومضمون هذا النص يقدم عدة رسائل قوية متمثلة في الارتباط القوي بين الشعب المغربي والسلطان بن يوسف من خلال الالتحام والاستقبال الشعبي للسلطان وولي عهده، ثم المناداة بصفة ولي العهد على الأمير مولاي الحسن، والتي يفهم منها وجود نوع من الاستمرارية في نظام الملك بالمغرب، وربط الماضي بالحاضر، ثم رفع الشعارات المناوئة للاستعمار، وهي عبارة عن رسائل موجهة للسلطان تطلب منه إحداث قطيعة مع الاستعمار، وتؤكد على مطلب الاستقلال، ولعل هذا ما أزعج السلطات الاستعمارية التي عملت على "توقيف الزيارة ومنع عدد من الجرائد الوطنية في

1 - من نص الخطاب التاريخي الذي ألقاه السلطان محمد الخامس بمدينة طنجة 1947م مجلة دعوة الحق العدد 316، سنة 2010م.

2 - جامع بيضا، سيدي محمد بن يوسف، السلطان الوطني 1427-1961م مجلة المناهل عدد 77 - 78، 2006م، ص: 45.

16 ماي 1934... غير أن الإجراءات القمعية لم تعمل إلا على تعزيز مكانة السلطان كعنصر فعال في الحركة الوطنية³.

ولعل هذا ما بين أن هذه الزيارة التي أرادت فرنسا أن تجعل منها أداة صراع وقطيعة بين السلطان وشعبه، جسدت في حقيقة الأمر الارتباط الوثيق بين الشعب والسلطان والالتفاف الكبير حول سلطان البلاد، وإظهار الموقف المعادي للاستعمار وسياسته.

ومن الزيارات السلطانية لبعض المناطق والأقاليم التي حملت عدة دلالات، ووجهت عدة رسائل، ما أشار إليه الأستاذ هاشم العلوي القاسمي أثناء حديثه عن رحلة السلطان سيدي محمد بن يوسف إلى تافيلالت، ماي 1941م⁴، والتي قدم لها وصفاً كرنولوجياً منذ انطلاقته بالرباط، إلى وصوله إلى مدينة الريصاني، محاولاً تقديم وصف شامل لمكان استقباله مستنتجاً عدة دلالات وعبر، حيث أكد أن الهدف الأساس منها كان هو محاولة فرض التهدئة مع المستعمر في المنطقة، لكنها في حقيقة الأمر جسدت بعداً وطنياً متمثلاً في قوة سلطة السلطان، ودوره الفعال في فرض التهدئة من خلال تنفيذ أمره، وطاعة أهل تافيلالت له، وهذا ما يجسد الروابط القوية الموجودة بين سكان تافيلالت والسلطان سيدي محمد بن يوسف، وتأكيداً لفرنسا مدى طاعة وارتباط السكان بشخصه.

وبعد تقديم الحركة الوطنية بالتنسيق الكامل مع السلطان، وثيقة المطالبة بالاستقلال يوم 11 يناير 1944م إلى السلطات الفرنسية مطالبة منح المغرب استقلاله الكامل⁵، برزت ردود الفعل الفرنسية عليها، بل إظهار مواقفها السلبية تجاه السلطان، ما جعله يستغل الزيارة إلى مدينة طنجة، بل جعل منها محطة لتقديم رسائل دبلوماسية إلى السلطات الفرنسية، وهذا ما يستشف من الإشارات القوية التي قدمها الأستاذ جامع بيضا بقوله "ذلك أن سيدي محمد بن يوسف قد تعمد في خطابه بطنجة (9 أبريل) إغفال العبارات البروتوكولية المنوّهة بدور فرنسا في المغرب، والتي جرت العادة أن يُختتم بها خطبه للتعبير عن استيائه لما اقترفه الجنود من بطش في الدار البيضاء يوم السابع من

3 - نفسه، ص: 46.

4 - نص مداخلة الأستاذ هاشم العلوي القاسمي أثناء الدورة السابعة عشرة لجامعة المولى علي الشريف، حول السلطان سيدي محمد بن يوسف، القدرة الافتتاحية، بمدينة الريصاني، 16-17 نونبر 2012م.

5 - محمد امراني علوي: وثيقة 11 يناير وترسيخ مفهوم الوطنية والمواطنة، مطبعة الودغرين طبعة أولى، الرشيدية 2011م حيثيات وابعاد ودلالات تقديم وثيقة منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وجيش التحرير طبعة ثالثة، 2011م، ص: 121.

أبريل" ⁶ هذه الزيارة التي اعتبرت تحديا للدولة الفرنسية ⁷، وتجسيدا للوحدة المجالية والترايبية للدولة المغربية، إلى جانب هذا أشار أيضا في خطابه بطنجة إلى التأكيد على مطلب الاستقلال. من خلال تقديم وثيقة 11 يناير 1944م للمطالبة بإنهاء الاستعمار ⁸. هذا ما أحدث استياء في العلاقة بين السلطان والإقامة العامة، كرد فعل منها على ما قام به وما وجهه من رسائل سياسية داخليا وخارجيا، ولعل هذا ما بين أن السلطان كان يختار الأوقات والأماكن المناسبة التي يوجه فيها الرسائل الدبلوماسية لفرنسا أساسا، إلى جانب القيام ببعض الأعمال التي تستتج منها كذلك رسائل كثيرة جدا، ودلالات وعبر.

لم يتوقف السلطان عن استراتيجيته هذه، فحتى بعد حصول المغرب على الاستقلال، ومع بقاء بعض الأجزاء الأخرى تحت الاستعمار، فإنه وجه رسائل كثيرة من خلال زيارته لعدد من الأماكن، ففي سنة 1956م توجه جلالة السلطان إلى المنطقة الشمالية واضعا حدا لمرحلة الانقسام، مؤكدا على توحيد المغرب بربط الشمال المغربي بجنوبه، بعد التفاوض مع الدولة الإسبانية واعترافها بوحدة المغرب الترابية ⁹.

وفي نفس السياق الذي تمت فيه هذه الزيارة، تمت أيضا زيارة السلطان إلى محاميد الغزلان، سنة 1958، فما هو سياق وحيثيات هذه الزيارة؟

2- سياق وحيثيات زيارة محاميد الغزلان:

أ- سياق الزيارة:

إذا انطلقنا من الخطاب التاريخي الذي وجهه السلطان في طنجة، والذي أكد فيه أن الزيارة تأتي في سياق إظهار العناية والرعاية التي يوليها لجل المناطق المغربية، والوقوف على شؤونها، فمن الراجح بل الأكيد أن زيارة السلطان إلى محاميد الغزلان لم تخرج عن هذا السياق، بالإضافة إلى أمر آخر متمثل في زمن الزيارة الذي يمثل استقلال جزء كبير من المغرب، وكون المدينة توجد على حدود

6 - جامع بيضا، مرجع سابق، ص: 493

7 - محمد المقراري: كرونولوجيا مسيرة التقرير بقيادة جلالة الملك محمد الخامس مجلة دعوة الحق، عدد 398، 2010م، ص: 25.

8 - انظر نص الخطاب الذي ألقاه السلطان محمد الخامس بمدينة طنجة سنة 1947م، مجلة دعوة الحق، العدد 398، سنة 2010م.

9 - محمد المغراوي، م. س ص: 31، ومحمد العلمي: محمد الخامس وتاريخ استقلال المغرب.

منطقة محتلة من طرف الإسبان، ولعل إلقاء الخطاب السلطاني بمحاميد الغزلان له دلالة أساسية في هذه الفترة، خصوصا وأن مضمون الرسائل الموجهة كانت تحمل رسائل دبلوماسية مباشرة الى سلطات الاحتلال الإسباني.

ولعل حيثيات الاستقبال الملكي، وظروف الاستعداد المحلي لاستقباله تعتبر رسالة واضحة إلى كل الأطراف، وخاصة الدول المحتلة لباقي الأجزاء المغربية الأخرى، والتي يمكن ان نستنتج منها.

1 - التشبث والارتباط القوي بالعرش المغربي والالتفاف حوله.

2 - ارتباط المناطق المحتلة - الصحراء المغربية - بالعرش نظرا للمشاركة الفعالة لوفود القبائل الصحراوية في الاستقبال الذي خصص للسلطان بمحاميد الغزلان.

ب- حيثيات الزيارة لمحاميد الغزلان:

لا يمكن وصول جلالة السلطان إلى محاميد الغزلان إلا مروراً بورزازات وزاكورة، المنطلق الأساسي لمحاميد الغزلان، وهذا ديدن السلطان لكونه يتفقد عددا من الرعايا في عدد من المدن والمناطق، التي يمر منها وبذلك يمكن القول إن زيارة محاميد الغزلان بدأت بوصول السلطان إلى ورزازات يوم السبت 24 فبراير 1958م، حيث قدم وصفا كاملا لهذه الرحلة وبكل التفاصيل ضمن سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال 1958م الوثيقة السادسة، بعنوان يرسخ مبدأ الوحدة الوطنية، وارتباط الصحراء بالوطن الأم، تحت عنوان: "الصحراء المغربية تستقبل جلالة الملك بحفاوة عظيمة"، فأشارت أنه خلال وصول جلالة الملك المعظم إلى ورزازات كان الموكب الملكي يمر وسط آلاف المواطنين الذين هموا من مختلف النواحي لتحيته والتهاتف بحياته، وكان جلالته ينزل من سيارته كلما وصل قرية من القرى ليرد على تحية سكانها، وفي مكان بعيد عن ورزازات بخمسة عشر كيلومتر كان في استقبال جلالته السيد إدريس المحمدي وزير الداخلية، الذي جاء خصيصا لهذه المهمة على متن الطائرة من الرباط.

ولما وصل جلالة الملك إلى ورزازات في الزوال، كان السكان بأجمعهم في انتظاره، وكانت المدينة مزينة بالأعلام وأقواس النصر، واللافتات والزرايب الجميلة، وهناك ركب جلالة الملك متن

سيارة جيب وقطع بواسطتها مسافة عشر كيلومترات الفاصلة بين ورزوات وفندق "جي ديطاب" التابع لوزارة الأنباء والسياحة، وقد استقبل هناك جلالة الملك السيد أحمد رضا كديرة وزير الأنباء والسياحة، وسر جلالة الملك عند وصوله إلى هذا الفندق خصوصا عندما وجد في استقباله وفدا يتكون من خمسين عاملا يشتغلون في المعادن الغربية من الناحية، وقد استفسر جلالته عن أحوالهم وعلم بهذه المناسبة أنهم يعملون في جو ودي للغاية، وأن لهم علائق طيبة مع مديري المناجم¹⁰، وتضيف السلسلة أن السلطان بعد تناول وجبة الغذاء مع الأسرة الملكية، وعند الساعة الخامسة مساء توجه لزيارة مستشفى ورزوات حيث استقبل من طرف الدكتور فيكورو، كما زار أيضا معرض الصناعة التقليدية حيث أعجب أشد الإعجاب بالزراحي الجميلة ذات الصنع المحلي، وشجع الصناع على متابعة العمل في طريق التجديد الظاهر على إنتاجهم ليتناول وجبة العشاء في حفلة أعدها عامل ورزوات السيد مولود النعيمي¹¹.

أما يوم 26 فبراير 1958م كان يوما مهما في تاريخ الصحراء المغربية، وسكان محاميد الغزلان، حيث ألقى جلالته خطابا هاما، عنوانته سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال سنة 1958م بعنوان "صاحب الجلالة يؤكد أمام آلاف الصحراويين بالمحاميد، سنعمل كل ما في وسعنا لاسترجاع صحرائنا وكل ما هو ثابت لمملكتنا بحكم التاريخ"¹²، بل من الأحداث المهمة التي قام بها السلطان في هذه الزيارة، وخاصة بهذه المناطق الجنوبية، البوابة والمنطلق الأساس لاسترجاع باقي المناطق المحتلة، ترأسه للمجلس الوزاري المصغر بمدينة زاكورة، هذا ما حولها إلى عاصمة للدولة ولو خلال هذا اليوم، مما يعطيها دلالات سياسية بليغة كونها وجهة رسائل قوية، أو رسائل دبلوماسية مهمة لعدد من الأطراف، وبعد الانتهاء من أشغال هذا المجلس توجه السلطان مصحوبا بولي العهد والوزراء لتدشين مسجد محمد الخامس بزاكورة، وقد أقيمت حفلة بمحضر جماهير غفيرة من سكان الناحية الذين ابتهجوا كثيرا للقيام بتدشين بيت الله هذا، حيث كانت مدينتهم في أشد الحاجة إليه¹³.

10 - سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال، 1958م، م، س، ص: 33.

11 - نفسه، ص: 34.

12 - نفسه، ص: 34 وستفرد عنوان خاص لهذا الخطاب ضمن هذه الدراسة يتم فيه تحليل مضامين الخطاب والدلالات والعبر المستوحاة منه.

13 - سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال، م، س، ص: 35-36.

وتابع الموكب مسيرته نحو تدشين المستشفى الجديد بهذه المدينة، بحضور الدكتور فرج وزير الصحة، والدكتور فيكورو طيب إقليم ورزوات¹⁴.

ومن خلال هذا الوصف لمسار الرحلة الملكية منذ وصوله إلى مدينة ورزوات، إلى حين تدشينه لمستشفى زاكورة، ومسجد محمد الخامس، يمكن أن نستنتج أن جلالة السلطان محمد الخامس، كان حريصا على القيام بأعمال لها مدلولات سياسية كبيرة جدا، تمثلت في الاهتمام القوي الذي يوليه السلطان للشعب، وذلك من خلال ترسيخ فكرة خدمة واهتمام الدولة بالشعب ارتباطا بتدشين المستشفى بزاكورة، وزيارة مستشفى ورزوات وتأكيداته على الاهتمام بالمستشفى بشكل أكبر، بالإضافة لكونه قدم رسالة أخرى تبين البعد الديني والروحي للدولة المغربية بتدشينه لمسجد محمد الخامس، باعتبار المغرب قلعة من قلاع الإسلام وجمعه بين البعد الاجتماعي والديني، أما عقده لمجلس الوزراء المصغر، فقد حمل هذا العمل بعدا سياسيا كبيرا، وذلك باعتبار زاكورة والصحراء المغربية قاعدة مغربية تحولت إلى عاصمة للدولة ولو خلال هذا اليوم، ما أكد العمق والارتباط بين الصحراء وباقي أجزاء المغرب، وهذا ما وضحه الخطاب الملكي أمام الجماهير الصحراوية بمحاميد الغزلان، بل مشاركة آلاف الصحراويين في الاستقبال المنظم لجلالته في المحاميد، مع تأكيد بيعة قبائل الصحراء لجلالته في هذه المدينة، جسد الارتباط القوي والمتجذر لدى قبائل الصحراء تجاه السلطان، والدولة المغربية، بالإضافة إلى كونها محطة تاريخية هامة ربطت الحاضر بالماضي، وذلك بتأكيداته على أنها استمرارية لزيارة السلاطين العلويين لمناطق الصحراء وخاصة مولاي الحسن الأول. وذلك بالعمل على ربط الماضي بالحاضر والمستقبل، بإشارته إلى ما سيقوم به من أجل الحصول على الاستقلال، والعمل على توفير السعادة والهناء، والرخاء الاقتصادي، لأبناء هذه المناطق والشعب المغربي.

3- خطاب محاميد الغزلان الدلالات والعبر 26 فبراير 1958.

أكد صاحب الجلالة أمام آلاف الصحراويين بالمحاميد بالقول سنعمل كل ما في وسعنا لاسترجاع صحرائنا، وكل ما هو ثابت لمملكتنا بحكم التاريخ. وفي جو من الحماس والابتهاج ألقى الملك محمد الخامس خطابا سياسيا مهما، أكد فيه أن جنابه الشريف سيعمل كل ما في وسعه لجمع

شتات أجزاء صحراء المغرب الكبرى، إلى أم الوطن، وانتشالها من ربقة الاستعباد حتى تتمتع بحياة حرة هادئة تحت ظل العرش المغربي العتيد وفيما يلي نص خطاب جلالة الملك.

"الحمد لله. رعايانا الصحراويين الأوفياء، لقد كان من الأماني العزيزة علينا أن نزور هذا الجزء من الصحراء المغربية ونجتمع بساكنيه لنشعرهم بما نوليهم وإياها من الاهتمام ولنحيي سنة حسنة جرى عليها ملوك المغرب من قديم، فقد كان من عادتهم المألوفة أن يقوموا بزيارة الصحراء بين الحين والحين معترفين متفقدين لأمن الشعب قاضين الحاجات، ناظرين في مصالح الرعية ساعين فيما يعود عليها بالخير العميم، وأن آخرهم وصولا إليها جدنا المنعم مولاي الحسن الذي بلغ إليها مرتين، ليؤكد وحدة المغرب وسيادة سلطته الشرعية على سائر أطرافه عندما بدأت المطاعم الأجنبية فيها تخرج الأعناق.

ولقد تسرت اليوم-والله الحمد- الأسباب لتحقيق أمنيتنا القديمة وسنحت الفرصة لإحياء تقاليد سلفنا المجيد فجئنا إلى مطالع الصحراء ومن حق ساكنيها علينا أن نجيب، فدرسنا شؤون كل مكان حللنا فيه، أو مررنا به في الطريق، واستمعنا إلى المطالب والرغبات ونحن عاملون على تحسين أحوالكم الاجتماعية والاقتصادية والثقافية والدينية وإنالتكم حظوظكم من بركات الاستقلال وخيرات الحرية.

وإن مما يسعدنا أن يستقبلنا في قرية المحاميد التي هي باب صحراء المغرب، أبناء الذين استقبلوا جدنا في قرية أخرى من الركييات وتكنة وأولاد دليم وسواها من قبائل الصحراء الشنقيطية، وأن نستمع إليهم ومعهم فقهاؤهم وأدباءهم، وهم يؤكدون لنا كما أكد أبائهم لجدنا تعلقهم بالعرش العلوي واستمسакهم بعروة المغرب الوثقى التي لا انفصام لها، وإننا نحبي نفوسهم الأبية وعزماتهم القوية، ونرحب بهم في وطنهم وبين أهلهم وعشيرتهم ونؤكد لهم بدورنا، وليبلغ الشاهد منهم الغائب، أننا سنواصل العمل بكل ما في وسعنا لاسترجاع صحرائنا وكل ما هو ثابت لمملكتنا بحكم التاريخ، ورغبات السكان، وهكذا نحافظ على الأمانة التي أخذنا أنفسنا بتأديتها كاملة غير ناقصة ألا وهي ربط حاضرنا بماضيينا، وتشديد صرح مستقبل مزدهر ينعم فيه جميع رعايانا بالسعادة والرفاهية والهناء، رعايانا الصحراويين الأوفياء، إن هذه الرحلة وما تخللها من شواهد

الولاء والإخلاص، ستبقى صورتها منطبعة في ذهننا وصداها قويا على أن نحقق لأهل الصحراء آمالهم التي هي آمالنا وآمال كل مغربي حريش لأمتة حياة المجد والفخار والله الموفق للصواب¹⁵.

هذا الخطاب يحمل العديد من الدلالات، ويمكن أن يستنتج منه العديد من الرؤى الاستراتيجية لسياسة السلطان محمد الخامس، بالإضافة إلى بعث العديد من الرسائل السياسية للمجتمع الدولي آنذاك، وللقوى الإمبريالية التي لازالت تحتل بعض مناطق المغرب ومنها الصحراء المغربية، ويمكن أن نحدد بعضها فيما يلي:

1- تأكيد الخطاب على الوحدة المجالية للدولة المغربية، محاولا ربط تاريخها الماضي بحاضرها، مستشرفا المستقبل، واتضح هذا من خلال إشارته إلى أن هذه الزيارة جاءت في إطار إحياء سنة حميدة دأب عليها ملوك الدولة العلوية، الذين كان من عادتهم القيام بزيارة للصحراء لتفقد رعاياهم بها، مؤكدين بذلك وحدة المغرب، وسيادة سلطته الشرعية على سائر أطرافه، منذ أن بدأت الأطماع الأجنبية تتجه نحو البلاد، وبذلك فقد حاول إبراز الحق التاريخي للدولة المغربية في صحرائها، وسلطته عليها في الماضي، مشيرا إلى العمل على تحريرها واستقلالها لتصبح مثل باقي المناطق المستقلة، بقوله في خطاب محاميد الغزلان "أننا سنواصل العمل بكل ما في وسعنا لاسترجاع صحرائنا، وكل ما هو ثابت لمملكتنا بحكم التاريخ ورغبات السكان".

2- ارتباط سكان الصحراء بالدولة المغربية في إطار من الاستمرارية، وذلك من خلال الإشارة إلى تأكيد ارتباط سكان المنطقة بالبيعة، كما أكد آباؤهم للسلطان مولاي الحسن الأول، وتعلقهم بالعرش المغربي، وهذا ما تجسد من خلال استقبال السلطان أثناء هذه الزيارة لممثلي وشيوخ وأبناء القبائل الصحراوية، وتلقي بيعتهم وولاءهم، ولعل هذا ما يستشف من العبارات الواردة في الخطاب السلطاني من قبيل قوله: "رعايانا الصحراويين"، إلى جانب ذكرى أسماء بعض القبائل الصحراوية التي بايعت السلطان خلال هذه الزيارة لتأكيد استمرارية بيعتها للعرش العلوي، بعدما بايع آباؤهم وأجدادهم جد السلطان الحسن الأول، وقد ذكر الركيات وتكنة وأولاد دليم، وقبائل الصحراء الشنقيطية، وهذا ما يبين الارتباط التاريخي القوي الموجود منذ القديم بين سكان الصحراء والسلاطين والملوك المغاربة، إلى جانب الاستقبال الحماسي الذي جسده أبناء الصحراء للسلطان

15 - سلسلة أحداث ملحمة الاستقلال، م.س، ص: 34 - 35.

محمد الخامس، وهذا ما أكدّه الحاج النعماني البالغ من العمر 86 سنة 2014م في تصريح لوكالة المغرب العربي للأنباء "شرعنا لعدة أسابيع في الاستعداد لاستقبال الموكب الملكي. كنا نود رؤية محرر البلاد عن قرب والاحتفال بالاستقلال الذي تم تحقيقه قبل سنتين من تاريخ الزيارة".

3- يعتبر الخطاب الملكي في محاميد الغزلان، رؤية مستقبلية لبناء الوطن، وتوحيد مجاله الجغرافي، والدعوة لتحرير ما تبقى من المناطق المحتلة، بمحاميد الغزلان بوابة الصحراء، وبحضور أبناء المناطق المحتلة بقوله: "سواصل العمل بكل ما في وسعنا لاسترجاع صحرائنا، وكل ما هو ثابت لمملكتنا بحكم التاريخ ورغبات السكان، وهكذا سنحافظ على الأمانة التي أخذنا على أنفسنا بتأديتها كاملة غير ناقصة" ولعل هذا ما يمكن أن نستشف منه أن السلطان يتعهد بالاستمرار في المقاومة، وربط المناطق الجنوبية بالشمال، وبالتالي تحطيم الحدود المصطنعة بين أجزاء الدولة المغربية، مشيراً إلى تبليغ الحاضر من سكان الصحراء الغائب منهم، ولعل هذا ما سيتحقق مع الملك الراحل الحسن الثاني، في استكمال الوحدة الترابية للمملكة بتنظيم المسيرة الخضراء، وتلقي بيعة سكان واد الذهب.

4- يمكن اعتبار هذا الخطاب وثيقة تعاهد بين السلطان وسكان الصحراء، الذين بايعوه كما بايع آباؤهم جده الحسن الأول في الوقت الذي أكد على مواصلة النضال من أجل تحرير بلادهم وربطها بالمجال المغربي، والعمل على إسعادهم وتحقيق الرفاهية لهم.

5- يعتبر الخطاب الملكي بمحاميد الغزلان إعلان عن نهاية تجزئة الدولة المغربية وتقطيع أوصالها، إلى ثلاث مناطق احتلال، وذلك بالتأكيد على ربط كل المجالات المغربية ببعضها البعض، وتوحيد الشعب المغربي قاطبة تحت قيادة موحدة تجسدت في البيعة التاريخية لسكان الصحراء للعرش المغربي.

6- يبقى الخطاب الملكي في محاميد الغزلان وثيقة تاريخية مهمة جداً، تجسد جزءاً من تاريخ الصحراء في ارتباطه بالتاريخ المغربي، بالإضافة إلى كونه محطة أساسية في إعطاء تصور للمغرب الجديد للمساهمة في ترسيخ مفهوم الوطنية المغربية، المبنية على الحقائق التاريخية والشواهد الدالة للارتباط العميق بين الصحراء المغربية وباقي أجزاء التراب المغربي تاريخياً شعبياً ومجالياً.

خاتمة:

لا يمكن اعتبار زيارة السلطان المغربي محمد الخامس لمحاميد الغزلان محطة تاريخية عابرة فقط، بل تعتبر محطة مهمة في ترسيخ الوعي التاريخي لدى المغاربة وجيل المستقبل بشكل أساس، لأن معرفة تاريخ الوطن، وأحداثه ودراساتها بوعي مع استحضار المقومات الوطنية تسهم في التمسك به، وترسيخ الوطنية الحقيقية، التي بدأت تفقد لدى البعض للأسف الشديد نظرا للجهل المطبق بتاريخ الوطن ومقوماته، لأن من يجهل شيئا يعاديه، ومن يعرفه يتمسك به، لذلك لا بد من اعتبار زيارة محمد الخامس لمحاميد الغزلان محطة تاريخية لها أهميتها في صناعة تاريخ المغرب المعاصر، ورؤية مستقبلية لبنائه وتطوره، مما يستوجب تخصيص دراسات وأبحاث، ومؤلفات حولها، حتى يتم التعرف عليها واستنباط الدروس والعبر المستوحاة منها، بالإضافة إلى ربط ماضي هذه الأمة بحاضرها، من أجل المساهمة الفعالة في بناء مستقبلها، من خلال مساهمة كل المعنيين في ذلك من أساتذة وباحثين وإعلاميين وبرامج دراسية بكل أسلاك التعليم. ودور جمعيات المجتمع المدني في الانخراط في ترسيخ الوعي لدى المغاربة، وخاصة الوعي التاريخي، والتعريف بتاريخ هذا الوطن. وبكل المحطات الأساسية المؤثرة والفاعلة في صناعة أحداث التاريخ الوطني، بهدف تخريج وصناعة الإنسان الواعي والمتشبث بوطنه، والمتطلع والعارف بكينونات تاريخه وأحداثه، حتى يصبح العنصر المساهم في ترسيخ وتبني الوطنية الصادقة والواعية بفقده واقعها.

ثورة الملك والشعب ومقومات النجاح

ذ. عبد العالي ملوك

مركز التوثيق والأنشطة الثقافية

بمكناس

شهدت ذاكرة الأيام في عمر الأمة المغربية حضور رجالات عظام، وانبعث أحداث جسام، سيظل ذكرها مضرب الأمثال، وموضع الفخار والإكبار، تتناقله الأجيال، وتذبح فيه المقالات والقصائد والأزجال.

وشأن كل أمة ذات امتداد في تاريخها، وعراقة في حضارتها، أن تجدد ذكرياتها، وتسترجع مواقف رجالها، ونضالات أبنائها، لا لمجرد الزهو بذكرها والنشوة بحكاياتها، بل لاقتفاء آثارها والسير على هديها: ﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ﴾¹.

ومن أجدر ما وقف عنده الواقفون، واستن بهديه العاقلون، ذكرى "ثورة الملك والشعب"، التي التحمت فيها قيادة رشيدة وشعب وفي، فصنعت ملحمة وطنية وتاريخية خالدة يوم 20 غشت 1953م.

ويراد بالثورة في اصطلاح السياسة وما يتصل بها: كل تحول تتعرض له جذور هذه السياسة أو ظواهرها، فيحدث فيها تغييراً ما، في البنيات والتوجهات التي من شأنها أن تحقق أهدافه؛ سواء بأسلوب سلمي هادئ، أو عن طريق القوة والكفاح المسلح.

1 - سورة الحج: الآية، 44.

وثورة الملك والشعب، هي الحركة النضالية التي عرفها المغرب إثر نفي الملك المنعم مولانا محمد الخامس طيب الله ثراه، وقد أضيف إليها اسم الملك والشعب، لأنهما كانا شريكين فيها، بل إنها ما اندلعت وعرفت أوجها، إلا بعد أن أعطى الملك المثال وقدم الدليل على البذل والعطاء، وأي دليل أقوى وأقطع من التضحية بالعرش، لقاء الدفاع عن الشعب واستقلال الوطن؟

ومن ثم كانت هذه الثورة، وهي ذات بُعد تحريري يهدف إلى إنهاء عهد الحماية، تتسم بالكفاح الوطني، وتتوسل بجميع الأساليب والوسائل التي كان في إمكان الشعب يومئذ أن يلجأ إليها ويستخدمها.

وهي ذات طابع سياسي سلمي، موصول بالعمل الوطني؛ الذي كان بدأ منذ منتصف سنوات الثلاثين، للمطالبة بالإصلاحات ثم بالاستقلال، بعد أن هدأت المقاومة المسلحة التي واجهت المغاربة بها جيوش الاحتلال في كثير من المناطق.

ومع ذلك، فأمام تحديات المستعمر، وقع الاضطرار إلى التوسل بالعمل المسلح الذي قام على الفداء، والذي كان خير رد لرفع تلكم التحديات، وكان الاجترار على نفي ملك البلاد أكبر تحدٍ حث على الثورة وأشعل فتيلها.

وتعتبر ثورة الملك والشعب بهذا الطابع وذاك الهدف، أقرب إلى الثورات التي اندلعت لاسترجاع الاستقلال - كما هو شأن المغرب وكثير من الأقطار التي وقعت تحت الاحتلال - أو للحصول على هذا الاستقلال، وفق ما عاشته الولايات المتحدة مثلاً، لفك قيد الحكم البريطاني في أوائل الربع الأخير من القرن الثامن عشر².

فما هي مقومات نجاح "ثورة الملك والشعب"؟ وكيف صنعت المملكة المغربية الشريفة نصراً مؤزراً على فلول الاحتلال مع ما بين الطرفين من تباين هائل في العدة والعتاد؟! هذا ما ستجيب عنه هذه الورقات، من خلال العناصر الآتية:

2 - انظر ثورة الملك والشعب: أسباب الإجماع وضرورة استمراره، عباس الجاراي، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية (سلسلة الدورات) ط 1/2004م، مطبعة المعارف الجديدة، الرباط، ص 131-132.

أولاً: الثورة تتويج لعمل تراكمي منظم وليست حدثاً فجائياً

ثانياً: الإيجابية

ثالثاً: من المواطنة إلى الحركة الوطنية

رابعاً: الإجماع على مطلب الاستقلال وشرعية السلطان

خامساً: علو المهمة

وتفصيل ذلك على النحو الآتي:

أولاً: الثورة تتويج لعمل تراكمي منظم وليست حدثاً فجائياً:

يسود الاعتقاد عند كثير من الناس، بأن ثورة الملك والشعب كانت حدثاً فجائياً غير متوقع، ولعل قوة الثورة وعمق آثارها النفسية والاجتماعية والسياسية، أنسى المتعجلين والناظرين إلى ظواهر الأمور ما سبقها من أطوار ومقدمات ومحطات تمهيدية، تشترك فيها معظم الثورات عبر التاريخ، إذ تبدأ بالظلم، وبعدها الاحتقان، ثم التظاهر، ثم الانفجار، وأخيراً التغيير³، حيث يذهب صفو الزمان ويبقى كدره - على حد تعبير الإمام أبي بكر الطرطوشي -، فالموت يومئذ تحفة لكل مسلم، كأن الخير أصبح خاملاً والشر أصبح ناظراً، وكأن الغي أصبح ضاحكاً وأدبر الرشد باكياً، وكأن العدل أصبح غائلاً وأصبح الجور غالباً، وكأن العقل أصبح مدفوناً والجهل منشوراً، وكأن اللؤم أصبح باسقاً والكرم خاوياً، وكأن الود أصبح مقطوعاً والبغضاء موصولاً، وكأن الكرامة قد سلبت من الصالحين ونوجي بها الأشرار، وكأن الخب أصبح مستيقظاً والوفاء نائماً، وكأن الكذب أصبح مثمراً والصدق ماحلاً، وكأن الأشرار أصبحوا يسامون السماء، وأصبح الأختيار يردون بطن الأرض!⁴

لكن الشعب المغربي كان له مع كل حادث حديث، وفي كل طور من هذه الأطوار، انتقال من الوقوع في الحالة إلى الوعي بها ثم مقاومتها وتجاوزها، متوسلاً بما تتيحه المرحلة من وسائل دينية، أو ثقافية، أو إعلامية أو سياسية، أو عسكرية.

3 - انظر فقه الثورة، يوسف زيدان، ط1/ 2013م، دار الشروق، القاهرة، ص 11.

4 - سراج الملوك، أبو بكر محمد بن الوليد الفهري الطرطوشي، تحقيق محمد فتحي أبو بكر، ط1/ 1994م، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، 1/ 71.

وليس تاريخنا الوطني سوى سلسلة من النضالات على درجات متباينة ومستويات مختلفة، شكل فيها الوعي الجماعي والإيمان الوطني لدى العرش والشعب، محور الحركة والإبداع والتحرير، فتدور الأحداث من حول هذا المجتمع ما تدور، وتتوالى الأحداث ما تتوالى، وترد الأوضاع والاحوال العامة والخاصة ما تتردى، وقد تعطي أحيانا كثرة انطبعا بأن نوعا من الجمود والسكون الأزلي قد دب أطراف الشعب وقواعده وأخذ بإحساسه وحركته، ولفه الشلل والاسترخاء، وألقى به الى استنامة طويلة قد تشبه الموت والانهيال، ولكن الواقع التاريخي يثبت في صحيفة هذا الشعب المغربي ظاهرة عامة بهذا الصدد لا تكاد تتخلف على امتداد الحياة وتخالف الأزمان، وهي أن هذا الشعب يظل في موقع المتابعة والاستسلام والمسيرة أمام وضع شاذ يجد نفسه واقعا فيه، حتى يبدو أحيانا أنه في حالة من اليأس والاستكانة والاستسلام، وفي موقف التفرج واللامبالاة، ولكنه في الوقت نفسه يحتفظ بحساسيته الصامتة، يلحظ السلوكات والمواقف، ويسجل الأحداث وتطوراتها ببصيرة ومتابعة، ويعيها ويعي دلالاتها وأبعادها بعمق، ثم يتركها تختمر في نفسه وتعمل آثارها في أعماقه وقتا قد يطول وقد يقصر، حتى إذا بلغت الانحرافات والإساءات والتوترات نهايتها، وتأكد أنه لم يبق إلا الإنقاذ، أقبلت الجماهير حينذاك في تلقائيتها المبدعة وفي طبيعتها المجللة بالصفاء وجلال الإيمان، وتحركت طلائعها الثورية تستقطب قوى الشعب وتدخل الساحة في ساعة الحسم، ويكون تدخلها آنئذ في صالح الإرادة الوطنية، بل تجسيدا لها، مثلما يكون هذا التدخل دفعا جماعيا شعبيا لحركة التطور التاريخي، أو على الأقل في إيجابياته الدنيا عملا وقائيا لوقف ظلم قائم، واستغلال متعنت، ورد تجاوز قاهر، وتسلب عاهر.. وتأكيذا بالأولى أن الشعب يحضن في ثنايا جماهيره مهما تكن استنামتها، شحنة ضخمة من الوعي والإحساس في مستوى الأحداث وفي عمقها، ويذخر طاقات سياسية للحركة والمبادرة، لا يمكن أن تكون إلا على قمة التاريخ وتغيير مجراه، حينما تتوافر له ظروف التبلور وعوامل التوثب والانطلاق.

وما ثبت تاريخيا كذلك، من أن أوضاع المجتمع خاصة السياسية منها بلغت إلى هوة من التردى والإفلاس، أو عبث بها التنكر لمصالح البلاد أو أدى التهاون بقضايا الشعب إلى الإساءة إلى كرامته وإرادته، فبقيت جماهير الشعب على سلبيتها وتفككها تتفرج وتتألم في عجز وصمت، وتكتفي بالرضى والسكينة والاستسلام إلى ما لا نهاية.

لا، أبدا، التاريخ الوطني لهذا المجتمع هو - في واقعه الذاتي- نبض وطني دائم بالرفض والتطلع والاستشفاف، ومسلسل توتر عنيف، انسبك على طول هذا التاريخ في ثورات متعاقبة صاعدة، كانت الجماهير المغربية لحمتها، وكان أبنائها الوقود الإنساني الذي ألهب المسيرة وجعلها انفجارا متواصلا في وجه احتلال أو محاولة احتلال أجنبي، أو ظلم داخلي، أو قهر محلي متسلط⁵.

ثانيا: من المواطنة إلى الحركة الوطنية

بصرف النظر عن البدايات الأولى لاستعمال مصطلحات الوطن والوطنية والمواطنة، فإن مضامين هذه العبارات كانت حاضرة في تاريخ المغرب الحديث، وأساسا متينا في صناعة التغيير وطرده الاستعمار والثورة على واقع الاحتلال، وقد انتبه الأستاذ علال الفاسي إلى علاقة هذه المفاهيم بالمسؤولية الفردية والجماعية، فجعل التكليف مرادفا للمواطنة، وأولى بالاستعمال في العرف الإسلامي، لأن الإسلام يعتبر كل واحد من أفراد البشر مكلفا، أي مطلوبا منه أن يقوم بواجباته الكاملة نحو ربه ونحو نفسه ونحو المجتمع الذي هو منه، والإنسانية التي ينتسب إليها. والتكليف في العرف الإسلامي يقوم مقام المواطنة في العرف الديموقراطي الحديث .. وكأن استعمال الإسلام لكلمة التكليف مكان غيرها إيدان بأن الحقوق تعني الواجبات، والواجبات تعني الحقوق، لأن الحقوق التي يطلبها الإنسان هي وسيلة للقيام بواجباته، وهذه أيضا تعتبر وسائل لحقوق أخرى يحصل عليها في حياته الدنيوية وفي يوم الجزاء، والتكليف يجعل الناس كلهم متحملين مهمة أداء الواجب والدفاع عن الحق⁶.

ومعنى هذا أن التطور يقع لا محالة بواسطة عاملين يشتغلان بصفة موازية في حياة الجماعات: الأول روح الأرض، والثاني عمل النموذج النفسي، إن الأرض وما تشتمل عليه من مشاهد وما تحسه من أجواء تعمل باتحاد مع النموذج النفسي لتكييف الشخص، وهما اللذان يرسمان على وجوهنا الصفات التي تميز الأجناس والشعوب، وروح المشاهد هي التي تصوغ نفوس الأمم وتعطيها مقوماتها الوطنية المحسوسة⁷.

5 - انظر الثورة الخامسة، صفحات من تاريخ المقاومة وجيش التحرير، محمد الحبيب الفرقاني، ط1/1990م، دار النشر المغربية، البيضاء، 1/63-64.

6 - مقاصد الشريعة الإسلامية ومكارمها، علال الفاسي، ص 225.

7 - النقد الذاتي، ص 117.

إن قوة الأرض أعظم القوات تأثيرا وأقدمها تاريخا، كما أنها أقوى صمودا من قوة الدم، لأن تغيير القوة الأرضية يحتاج لآلاف السنين، بينما تغيير قوة الدم يتم في أقرب الأوقات، إذ هي تبلى ككل شيء حي وتمتزج بغيرها فلا تكاد تدرى مميزاتها....⁸.

هذا التحليل يفيدنا في فهم المراحل والأطوار التي مرت منها الوطنية المغربية حتى وصلت إلى المرحلة الأخيرة، وهي مرحلة "الحركة وطنية"؛ التي أبدعت - بتكامل وتنسيق تام مع العرش - "ثورة الملك والشعب"، حيث تبرز سيرورة فكرة كانت بسيطة في البداية إلى أن أصبحت في النهاية حركة شعب واع، تسري فيه إرادة وعزيمة وإصرار على التغيير.

فالحركة الوطنية هي تطور نوعي في مسار الوطنية، لأنها تمثل تيارا قائما ومنظما في المجتمع، له أسسه المذهبية وبرامجه وأهدافه، بحيث لا تبقى الوطنية مجرد موقف شخصي طبيعي وتلقائي، بل ظاهرة داخلية في وعي الجماهير عن طريق التوعية والدعوة والاتصال المنظم، ويصبح وراءها رجال منتصبون للبحث في وسائل عملها وتنويع نضالها وتحديد مطالبها، أو بمعنى آخر، هي طريقة لاستثمار الشعور الوطني الطبيعي من أجل تقوية فعاليته ومضاعفة مردوديته، وإذا جاز لنا أن نستعمل التشبيه، فالوطنية كالنهر الذي يعرف المد والجزر، والغزارة والنضوب، بينما الحركة الوطنية بمثابة السد الذي يخزن مياهه ليوزعها في الأوقات المناسبة ويستخرج من انصبابها طاقة كهربائية، إنها تقنية معنوية وروحية تعتمد على إرادة الإنسان وذكائه⁹.

ثالثا: الإجماع على مطلب الاستقلال وشرعية السلطان

من أهم أسباب نجاح ثورة الملك والشعب، أنها استندت على تماسك المجتمع وتلاحم مختلف مكوناته، رغم أنها كانت دون ما يمتلك الغزاة من قوة وعتاد، وهو ما يتسنى به الإجماع الذي به تدرك الغايات، مهما تكن بعيدة أو صعبة المنال.

والإجماع يقتضي تضيق الخلاف، وتقريب الرؤى، بغية الوصول إلى رأي موحد أو حكم مشترك، سواء بالاتفاق أو التراضي، لتحقيق مصالح جماعية بأساليب معينة، وهو موقف ينم عن

8 - النقد الذاتي، ص 118.

9 - انظر صفحات من الوطنية المغربية: من الثورة الريفية إلى الحركة الوطنية، محمد زنيبر، ط1 / 1990م، دار النشر المغربية، ص 110.

عمق الوعي بالذات والواقع، وعن بعد الرؤية للمستقبل، مع كامل الإدراك للتوقعات؛ مما يفضي إلى رسوخ الشعور بالمسؤولية، ويحفز على تحملها عن رضى واقتناع وطوعية.

ويمكن إجمال عوامل الإجماع الذي حدث حول ثورة الملك والشعب، في أمرين:

أحدهما: النضال من أجل استرجاع الاستقلال، بتحالف صادق ووثيق بين الملك والشعب، وبروح مألوفة للمغاربة وملوكهم تدفع إلى الجهاد للذود عن الوطن والدين، ورد أي اعتداء عليهما، مهما تكن التضحيات عالية وغالية.

والثاني: التمسك بالشرعية، وهو مدلول سياسي عميق، يعبر عن التوافق التام بين الحاكم والمحكوم، ويكون قائما على الاقتناع والتلقائية والإرادة الحرة.

فأمام مواقف الاحتلال وعملائه؛ التي لم تكن تزيد العرش والشعب إلا تشبثاً بالحق وحرصاً على المطالبة به، كلما اشتدت الأزمة، لم تعد إدارة الاستعمار تطيق أن تتحمل، فهاجت وماجت وحرأمرها، ولم تجد غير التآمر على الشرعية، ولجأت إلى نفي رمز البلاد وأسرته الشريفة.

وكان الشعب طوال هذه الفترة، مفعماً بروح محمد الخامس الجهادية؛ ومن ثم أجمع على رفض ما أراد الاستعمار إجباره عليه، وصمم بإصرار على متابعة نضاله بالتضحية والفداء، حتى يرجع إلى العرش ملك البلاد الذي غدا رمزاً لجميع القيم والمبادئ الوطنية.

لقد أثبتت حادثة إبعاد الملك الشرعي ونفيه، أن التجاوب كان عميقاً بين الأمة وملكها، وهو تجاوب تجاوز كل المهازل التي توصل الاستعمار بها لإضفاء الشرعية على مؤامراته، والتي كان يرمي من ورائها إلى أن يرى الكيان المغربي ينهار¹⁰، وقد عبر الملك الراحل جلالة الملك الحسن الثاني طيب الله ثراه عن هذا المعنى بعبارات بليغة في كتاب التحدي قال فيها: "إن التحالف الثوري بين القصر والحركة الاستقلالية قد أفزع كلا رأسي المؤامرة (يقصد كلا من المقيم العام الجنرال جوان والعميل التهامي الكلاوي)، فقد كانا لا يستطيعان أن يفهما قيام اتحاد طبيعي بين الشعب وقائده الزمني والروحي الذي هو الملك"¹¹.

10 - انظر ثورة الملك والشعب: أسباب الإجماع وضرورة استمراره، مرجع سابق، ص 133-136.

11 - التحدي، الحسن الثاني ملك المغرب، ط3/1995م، المطبعة الملكية، ص 68.

رابعاً: الإيجابية

الإيجابية ضد السلبية، وهي حالة في النفس تجعل صاحبها مهموماً بأمر ما ويرى نفسه مسؤولاً عنه تجاه الآخرين. ومن أهم دعائياتها النظر إلى مناط التكليف باعتباره أمراً فردياً، فيمتلك زمام المبادرة دون التفات إلى عمل الآخرين أو إذنبهم، إلا ما كان جزءاً من خطة أو حتمته طبيعة العمل الجماعي. ومن أبدع ما وقفت عليه في هذا السياق قول القرطبي في قوله تعالى: ﴿فَقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ وَحَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ﴾¹²: "كأن هذا المعنى: لا تدع جهاد العدو والانتصار للمستضعفين من المؤمنين ولو وحدك..¹³"

وفي قصة الهدهد مع نبي الله سليمان ما يشير إلى هذا المعنى أيضاً، إذ تبين كيف أحاط بما لم يحط به وجاءه من سبأ بنياً يقين، دون تكليف سابق، أو انتظار أمر من قائده، فكانت تلك المبادرة الفردية القاصدة - في إطار الضوابط والأهداف الجماعية - سبباً في نشر التوحيد، ودخول مملكة بشعبها وملكتها في الإسلام، قال تعالى: ﴿وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ فَقَالَ مَا لِيَ لَا أَرَى الْهَدَّ هَدَّ أُمَّ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ (20) لَا عَذْبَنَ عَذَاباً شَدِيداً أَوْ لَا ذُبْحَنَ أَوْ لِيَأْتِنِي بِسُلْطَانٍ مَبِينٍ (21) فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطْتُ بِمَا لَمْ تَحُطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِنْ سَبَإٍ بَنِيَّ يَقِينُ (22) إِنِّي وَجَدْتُ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (23) وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزِينَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَاهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (24)﴾¹⁴.

ومن تتبع جذور الحركات التغييرية، والانعطافات الحضارية، يجد أن المبادرات الفردية، والإيجابية الذاتية هما منبع الأفكار المتميزة، وبداية الفتوح الربانية.

ومن مظاهر التفكير الإيجابي في تاريخ الشعب المغربي:

- إيجابية قائد التحرير جلالة الملك محمد الخامس طيب الله ثراه: فقد كان رحمه الله يعطي المثال من نفسه في بث روح المبادرة، فلا يدع فرصة دون أن يغتنمها للتذكير بحقوق وطنه وطموح شعبه

12 - سورة النساء: الآية، 83.

13 - الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله القرطبي، تحقيق عبد الله بن عبد المحسن التركي، ط1/2006م، مؤسسة الرسالة، بيروت، 481/6.

14 - سورة النمل: الآيات، 20-24.

إلى التخلص من الوصاية الأجنبية وعودته إلى حياته الطبيعية التي عاشها طيلة قرون، من خلال خطابه، وتصريحاته، ولقاءاته بوفود وزعماء الدول العربية والأجنبية داخل المغرب وخارجه، فذكر بذلك خلال اجتماعه بروزفلت وتشرشل مساء يوم الجمعة 22 يناير 1943م بالدار البيضاء، وأثناء تقديم عريضة الاستقلال إليه يوم 11 يناير سنة 1944م، وخلال اجتماعه في باريس بالجنرال ديغول في شهر يونيو 1945م، وحينما زار طنجة وألقى بها خطابه التاريخي يوم الخميس 10 أبريل سنة 1947م، وأثناء، وبعد نفيه إلى كورسيكا ومدغشقر يوم 20 غشت 1953م¹⁵.

- فكرة الاحتفال بعيد العرش المجيد: لقد تفتقت العبقريّة الوطنية عن فكرة الاحتفال بعيد جلوس جلالة الملك على العرش، بهدف توثيق العلاقة التاريخية بين الملك والشعب، بصيغة مبتكرة، وبأسلوب يفوت الفرصة على المستعمر، ويصيب سياسته في مقتل؛ حيث كانت فرنسا تهدف إلى عزل الملك عن شعبه لإضعافه، والانفراد بالحكم.

وكان أول عيد عرش احتفل به المغاربة هو الذي خلدت فيه الذكرى السادسة لجلوس جلالة الملك محمد الخامس على عرش آبائه وأجداده في يوم 18 من نونبر عام 1933م.

ولأول مرة في التاريخ، تأتي المبادرة إلى الاحتفال بعيد الجلوس على العرش من الشعب وليس من صاحب العرش، وهذه من مفاخر الحركة الوطنية المغربية، ومن مظاهر ارتباط العرش بالشعب، وذلك الارتباط القوي المتين الذي نسجت خيوطه بإحكام في السنوات الأولى من الثلاثينات¹⁶.

- نداء القاهرة لعلال الفاسي: بعد نصف ساعة من اختطاف جلالة الملك محمد الخامس ونفيه خارج بلده، دعا الزعيم علال الفاسي من القاهرة إلى المقاومة المسلحة في نداء تاريخي شهير عبر إذاعة "صوت العرب" عرف بـ "نداء القاهرة" مما جاء فيه: "لقد قضى القضاء وبلغت الغطرسة بالفرنسيين إلى حد أن يبعدوا ملكنا الشرعي عن عرشه (..) وإنني كزعيم حزب الاستقلال، وكواحد من علماء القرويين الذين لهم وحدهم حق انتخاب السلاطين، أعلن رسمياً أن الملك

15 - محمد الخامس: دراسات وشهادات، إعداد وإنجاز عبد الحق المربني، ط 1/ 1988م، مطابع دار السياسة، المغرب، ص 42.

16 - جلالة الملك محمد الخامس والحركة الوطنية المغربية: تجاوب وتكامل، لأبي بكر القادري، مطبوعات أكاديمية المملكة المغربية، مرجع سابق، ص 29.

الشرعي لمراكش (يقصد المغرب) كان وسيظل محمد الخامس، وأن ولي عهد المملكة الشريفة هو مولاي الحسن النجل الأكبر لسلطان مراكش، وإننا لن نعترف بأي سلطان أو رئيس صوري تنصبه السلطات الفرنسية (..) وإني أؤكد لجميع المراكشيين والمسلمين وللعالم الحر، أننا لن نتقهقر عن موقفنا أو نحيد عن خطتنا إلى أن نحقق آمال الأمة في الحرية والاستقلال وطرده الغاصبين، وما دام الله معنا فالتصر لنا"¹⁷.

وبعد ستة أيام من هذا النداء (أي بتاريخ 26 غشت 1953م)، ألقى خطابا ثانيا دعا فيه إلى تنظيم الصفوف في كل العالم العربي والإسلامي؛ الذي مثله بذلك العملاق الطويل الذي يمتد من غرب إفريقيا إلى الصين، والذي لا يمكن أن تقهره دولة كفرنسا أو بريطانيا لو كنا نؤمن بأنفسنا ونوطد العزم على الكفاح"¹⁸.

- العمليات الاستشهادية والطلائع الثورية: إذا كانت القوة الفاعلة والكامنة في التاريخ إنما هي القوة الاجتماعية التي ينتضج بها المجتمع، وتختمر بها الأحداث المتوالية، وتتراكم بها وتتلور عوامل العزة أو المهانة، وأسباب الصعود أو الانحدار، وظواهر الانتصار أو الهزيمة، ارتكازا على المكونات الذاتية لمجتمع بعينه، والطبيعة المؤثرة لخصائصه ومقوماته .. فإن دور الطلائع الثورية التي يفرزها المجتمع نفسه، بما تملك من وعي متقدم، وإحساس محيط بمنابض القوة ومطامح الإرادة الجماعية، يظل دورا مركزيا في حركات التاريخ، وفي استقطاب القوى الاجتماعية الطامحة إلى التطور والتغيير، ويبقى المجتمع في ذاته مادة أولية للتحرك، وقوة خاما للتغيير، لا يملك القدرة على اكتشافها وتوظيفها في الاتجاه الصحيح إلا طليعة قوية الإحساس، مكتملة الإرادة والتحضر للوثوب على التاريخ.

الطليعة هذه قد تكون جماعة، أو طائفة، أو حزب سياسيا، وقد تكون فردا واحدا: قائدا ملهما، أو زعيما نبيا، أو ملكا وطنيا، أو إمبراطورا ذكيا، أو فاتحا مغوارا، تأتي هذه الطليعة - الجماعة أو الفرد - في ساعة الحاجة والاستجابة فتمسك الخيوط وتقود التاريخ من يافوخه"¹⁹.

17 - نداء القاهرة، علال الفاسي، ط2/ 1981م، مطبعة الرسالة، الرباط، ص 3-4.

18 - نداء القاهرة، ص 43.

19 - الثورة الخامسة، صفحات من تاريخ المقاومة وجيش التحرير، محمد الحبيب الفرقاني، ط1/ 1990م، دار النشر المغربية، البيضاء، 18/1.

ومنذ إعلان الحماية، عرف المغرب عددا من الثورات العفوية والتلقائية من أبناء البوادي والمدن، وصفها المقاوم الأستاذ محمد الحبيب الفرقاني بـ "خمس ثورات في نصف قرن"²⁰، توجت بثورة الملك والشعب، ومنها: ثورة الشيخ أحمد الهيبة بن الشيخ ماء العينين بالجنوب، وثورة الأطلس المتوسط بزعامة موحى وحمو الزياني ومحمد الحنصالي، وثورة الريف بقيادة الأمير محمد بن عبد الكريم الخطابي، وثورة الأطلس الصغير بسوس، ثم ثورة الملك والشعب، بعد الاعتداء على رمز الأمة ونفيه مع أفراد عائلته يوم 20 غشت 1953م²¹.

كما تحركت الآلة الفدائية لتنفيذ مجموعة من العمليات انتقاما لنفي السلطان محمد الخامس، وتنوعت أشكالها بين التصفيات الجسدية، وتخريب ممتلكات الاحتلال، وتعطيل مصالحه، من ذلك: نسف خط السكك الحديدية بالقنيطرة، وتفجير القطار السريع: الدار البيضاء - الجزائر، وتفجير قنبلة بمرس السلطان، واختطاف أنطوان بيلترون (عضو منظمة الوجود الفرنسي بالقنيطرة)²²، وطعن إمام مسجد المواسين بمراكش إثر دعائه يوم الجمعة مع صنيعة الاستعمار - ابن عرفة -، والعملية الفدائية التي نفذها الشهيد البطل علال بن عبد الله - الرجل الذي أعلن الثورة وحده كما وصفه المقاوم الأستاذ الحبيب الفرقاني - مستهدفا الموكب الرسمي لابن عرفة؛ الذي كان متجها إلى مسجد أهل فاس لأداء صلاة الجمعة الرسمية، وذلك صبيحة يوم الجمعة 11 شتنبر 1953م²³.

خامسا: علو الهمة

يراد بعلو الهمة (أو عظم الهمة): "استصغار ما دون النهاية من معالي الأمور، وطلب المراتب السامية، واستحقاق ما يجود به الإنسان عند العطية، والاستخفاف بأوساط الأمور، وطلب الغايات، والتهاون بما يملكه وبذل ما يمكنه لمن يسأله من غير امتنان ولا اعتداد به. وهذا الخلق من أخلاق الملوك خاصة، وقد يحسن الرؤساء والعظماء ومن تسمو نفسه إلى مراتبهم"²⁴.

20 - الثورة الخامسة، 1/ 61.

21 - الثورة الخامسة، 1/ 72-83.

22 - انظر موسوعة الحركة الوطنية والمقاومة وجيش التحرير بالمغرب، المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، ط1/ 2010م، منشورات عكاظ، الرباط، 3/ 85-122.

23 - الثورة الخامسة، 1/ 212-229.

24 - تهذيب الاخلاق، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ، ط1/ 1989م، دار الصحابة للتراث، طنطا، القاهرة، ص 28.

وعكسه دنو المهمة، (أو صغر المهمة)، وهو ضعف النفس عن بلوغ المراتب العالية، وقصور الأمل عن بلوغ الغايات، واستكثار اليسير من الفضائل، واستعظام القليل من العطايا، والاعتداد به، والرضى بأوساط الأمور وأصاغرهما، وهذا الخلق قبيح بكل أحد، وهو بالملوك أقبح، بل ليس بمستحق الملك من صغرت همته²⁵.

وإذا كانت المحنة تلد المهمة - كما أثر عن الشيخ جمال الدين الأفغاني رحمه الله -، فقد كان للمغاربة - ملكا وشعبا - إبان سنوات الاحتلال حظ وافر من هذه السنة الاجتماعية، وهذه مقتطفات من مواقف جلالته المغفور له محمد الخامس طيب الله ثراه مع ولي عهده جلالته المغفور له مولاي الحسن، ومواقف بعض رجالات المقاومة وجيش التحرير:

ففى خطاب العرش ليوم 18 نونبر 1952م، انتقد جلالته المغفور له محمد الخامس نظام الحماية، الذي شبهه بقميص فصل لطفل كان صغيرا، ولكنه الآن كبر ونما وتقدم، ومع ذلك يصرون على الاحتفاظ بهذا القميص الذي قصر وضاق كثيرا، ثم تحدث عن علو همة نجله جلالته المغفور له مولاي الحسن، قائلا: "ومما أدخل سرورا عظيما علينا وعلى أفراد أمتنا الوفية خلال السنة، هو نجاح نجلنا البار ولي عهد مملكتنا مولاي الحسن أصلحه الله في شهادتي اللسانس النهائية للحقوق الفرنسية، وسيعمل بوصيتنا له من التمسك دائما بما قاله حكيم الشرق: (لا نهاية للفضيلة، ولا حد للكمال، ولا موقف للعرفان) فسيزيد من الدراسة العالية ويبدل جهودا متوالية إلى أن يصبح إن شاء الله جامعا بين العلوم والآداب، ويكون بذلك أسوة حسنة لإخوانه ولسائر أقرانه"²⁶.

ومن هذا القبيل أيضا، موقف الشهيد البطل أحمد الراشدي؛ الذي ظل يحاور القاضي الفرنسي أثناء محاكمته يوم 22 يونيو 1954م، فكان مما قال: "أيها القضاة، أقف أمامكم اليوم في هذا الموقف على ما أريد أن تشاهدوه من الرزانة والثبات، وأنا لا أطالبكم بالعدالة ولا أطمح فيها منكم، لأنها لا تعرف ساحتكم، ثم بعد هذا وقبله، إنكم أفراد، ولا أستعطفكم لأن العطف لا يعرف قلوبكم، ولا أخاف الموت في هذا السبيل، لأنه باب من أبواب الجنة، ولكنني أقول لكم قول شاعر القطرين خليل مطران:

25 - تهذيب الأخلاق، ص 34.

26 - التحدي، مرجع سابق، ص 75-76.

كسروا الأقلام هل تكسيرا
قطعوا الأيدي، هل تقطيعها
قطعوا الألسن هل تقطيعها
أخذوا الأنفاس.. هذا جهدكم
يمنع الأيدي أن تنقض صخرا
يمنع الألسن أن تنطق جهرا
يمنع الأنفاس أن تصعد زفرا
فيه منجاتنا منكم.. فشكرا

وحينما أخذ صبيحة يوم 2 يناير 1955م إلى ساحة الإعدام لتنفيذ الحكم عليه، تقدم جندي ليضع عصا على عينيه، فنهزه قائلا: اتركوني.. أريد أن أرى موتي، أريد أن يكون تراب الوطن وسماؤه الصافية وأفقه البعيد آخر ما أرى ساعة الموت.. الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله.. ثم انطلقت الرصاصات تنقله إلى عالم الشهادة²⁷.

وأختم بهذه الأبيات الرائعة من قصيدتين في ديوان الأستاذ علال الفاسي²⁸، يقول فيها:

سيعرفني قومي²⁹:

أبعدَ مرورِ الخمسِ عشرةَ ألبُ
وليَ نظراً عالٍ ونفسٌ أبيةٌ
وعنديَ آمالٍ أريدُ بلوغها
وليَ أمةٍ منكودةٌ الحظ لم تجد
قضيت عليها زهو عمري تحسرا
ولا راق لي نوم، وإن نمت ساعة
سيعرفني قومي إذا جدَّ جدُّهم
وأهـو بلذاتِ الحياةِ وأطربُ؟
مُقاماً على هامِ المجرة تطلبُ
تضيع إذا لعبتُ دهري وتذهبُ
سبيلا إلى العيش الذي تطلبُ
فما ساغ لي طعم ولا لذَ مشربُ
فلإني على جمر الغضا أتقلبُ
كما عرفوني اليوم إذ قمتُ أخطبُ

27 - الثورة الخامسة، 1/ 8-9.

28 - بتصرف.

29 - ديوان علال الفاسي، تحقيق عبد العلي الودغيري، ط2/ 1998م، مؤسسة علال الفاسي، 1/ 25-27.

إلى الشباب المثل³⁰ :

كل صعب على الشباب يهون
قدم في الثرى وفوق الثرى
قد حسبناهم رجالا فكانوا
مثلوا ما مضى لهم من فخارٍ
ليرى كيف ضاع حزم وعزم
آه! لو دام ذلك العزم فينا
آه! لو دام ذلك العزم فينا
مادهانا؟ وما اعترانا؟ فصرنا
أين ضاعت عزائم ونفوس؟
أين أبأؤنا؟ وأين حماهم
أين من دوخوا الفرنج ودانت

هكذا همّة الرجال تكون
همّة قدرها هناك ممكن
ولههم في الحياة مغزى ممكن
ليرى ما أتاه دهر خؤون
وعرا بعده فتور وهون
لم تكن في الورى بلاد هجين
كان للعالمين منّا شؤون
هكذا قد علا علينا الدون
أين ضاعت معارف وفنون؟
أين ساحاتهم؟ وأين الحصون؟
لهم الهند عن رضى والصين؟

والحمد لله الذي بنعمته تتم الصالحات

30 - ديوان علال الفاسي، مرجع سابق، 1/ 42-44.

قراءة في مذكرات أبي بكر القادري عن الحركة الوطنية المغربية -الجزء الأول-

د. سعيد المغناوي

جامعة سيدي محمد بن عبد الله
بفاس.

صدرت الطبعة الأولى لكتاب أبي بكر القادري رحمه الله عن مطبعة النجاح الجديدة بالدار البيضاء، سنة 1993م، تحت عنوان: (مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية: ذكريات ومواقف وأحداث)، وذلك في جزأين: الجزء الأول من 1930م إلى 1940م، والجزء الثاني من 1941م إلى 1945م.

وصاحب هذه المذكرات من رواد الحركة الوطنية، ومن الموقعين على وثيقة المطالبة بالاستقلال في 11 يناير 1944م، ومن أبلوا البلاء الحسن في الكفاح الوطني من أجل حرية المغرب واستقلاله، ومن قادة الرأي الذين ساهموا في صياغة الفكر الوطني. وقد ولد رحمه الله سنة 1914م بمدينة سلا، وتوفي سنة 2012م. من مؤلفاته: في سبيل بعث إسلامي (مطبعة الرسالة، الرباط، 1972م)، مشاهدات في الولايات المتحدة الأمريكية (مطبعة الرسالة، الرباط، 1979م)، في سبيل وعي إسلامي (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1980م)، رسالة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسالة عالمية خالدة (مطبعة الرسالة، الرباط، 1980م)، قصة النهضة (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1984م)، في سبيل مجتمع إسلامي (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1986م)، مذكرات إفريقية وآسيوية (مطبعة الرسالة، الرباط، 1987م)، دفاعا عن المرأة المسلمة (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1990م)، مبادئ وأصول في التشريع الإسلامي (مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1991م).

الجزء الأول:

نَبّه أبو بكر القادري - رحمه الله - في التقديم إلى أن تاريخ الحركة الوطنية المغربية وإن كان قد كتب فيه الكثيرون، كل من منزعه ومقصده، ومع ذلك فإنه لازال لم يُدوّن التدوين الكامل، ولم يُؤرخ التاريخ الكافي والوافي، وذلك لأسباب متعددة، أهمها:

1 - أن بعض الذين قادوا الحركة الوطنية، لم يكتبوا مذكراتهم ولم يسجلوا الأحداث والوقائع غالبا، وخصوصا الوقائع التي عايشوها وأشرفوا عليها، وعرفوا حقائقها وأغوارها، ودوافعها وأسبابها، وما لاقته من نجاح أو فشل، فبقي ذلك الجانب غامضا، غائبا عن الأعين.

2 - أن الظروف التي نشأت فيها الحركة الوطنية كانت ظروفًا قاسية وغير مريحة، لأن العهد الاستعماري كان يتّسم بالطغيان والجبروت. ومن ثم، لم يكن من المفيد ولا من المصلحة أن تُسجّل الأحداث والوقائع كما يُخطط لها وكما تُنفّذ، حتى لا يطلع المستعمر على ما يُفكر فيه الوطنيون وما قاموا أو سيقومون به.

3 - أن المداولات والمناقشات التي كانت تجري في اجتماعات المقاومين الخاصة، لم تكن تسجل في محاضر جلسات مضبوطة، وإنما تبقى محفوظة لدى أمناء السر والكتاب الذين يُعهد إليهم بالتسجيل، وحتى إذا ما كُتبت بعض القرارات، فإنها تُكتب مختصرة كاملة الاختصار، بحيث إذا فُضحت لا يستفيد منها المستعمرون.

4 - إن كثيرا من الأحداث والمذكرات التي سُجّلت ضاعت من أيدي أصحابها لغير ما سبب، لأنهم كانوا معرضين دائما للتفتيش من طرف القوى الاستعمارية، ولذلك اتّمنوا بعض الوثائق عند من لا تحوم حولهم شبهات من طرف المستعمر كي يحتفظ بها كاملة عنده، ولكن بعض الظروف والأزمات الشديدة التي عاشتها البلاد، جعلت أولئك الأمناء يخشون من اكتشاف أمر تلك الوثائق، فعمدوا إلى إحراقها حتى لا يعرضوا أنفسهم وإخوانهم وحركتهم للمكروه.

أما في المدخل²، فقد أشار المؤلف إلى أن المغرب بقي محتفظا باستقلاله مدافعا عن حرّيته لقرون، بفضل ما كان يتوفر عليه من وسائل الدفاع عن نفسه من الانتهاكات والغارات الأجنبية.

1 - مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، أبو بكر القادري، ص 7-12.

2 - مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، أبو بكر القادري، ص 13-24.

لكن بعد الثورة الصناعية في أوروبا، صارت الدول الغربية متفوقة في مختلف المجالات، وتهدد غيرها من الأقطار، بما فيها المغرب الذي لم تعد قواته البحرية متكافئة مع القوى البحرية الأوروبية.

ثم في عهد السلطان المولى عبد الرحمن وقع احتلال الجزائر من طرف فرنسا سنة 1830م، فانزعج المغاربة لذلك، وقرروا مساندة إخوانهم الجزائريين بكل ما يستطيعون، مما أدى إلى حدوث اشتباكات بين جنودهم والجنود الفرنسيين، وانهمزم المغرب في معركة إيسلي سنة 1844م.

وقد اغتنتم إسبانيا الضعف الذي أصبح فيه المغرب بعد معركة إيسلي، فهاجمت الجزر الجعفرية الواقعة شرق مدينة مليلية واستولت عليها، كما اغتنتم وقوع حادث في الحدود مع سبتة فهاجمت مدينة تطوان سنة 1860م واحتلتها، ولم تغادرها إلا بعد توقيع معاهدة مع المغرب زادت في إضعافه.

وعلى الرغم من هذه الهجومات التي تعرض لها، فقد استطاع أن يحافظ على وحدته، ولكن بقي مع ذلك متعرضا للتدخل الأجنبي، وهدفا لأطماعه.

بعد التقديم والمدخل وقف أبو بكر القادري - رحمه الله - عند محطات كثيرة من محطات الحركة الوطنية، أهمها:

مؤتمر الجزيرة الخضراء³

وهو مؤتمر عام 1906م، الذي مهد لاحتلال المغرب وفرض الحماية عليه؛ لأن القرارات التي اتخذها، سواء في الميدان المالي أو الأمني أو الإداري، لم تُرض ممثلي المغرب، ولم يُوقع عليها المولى عبد العزيز إلا تحت الضغط، بعد مرور شهرين على انفضاضه. لقد كانت قراراته - كما لاحظ ذلك الباحثون والمختصون - تنظيما للحماية الفرنسية والإسبانية على المغرب تحت مراقبة دولية، كما برهنت على أن الدول الاستعمارية - وفي طليعتها فرنسا - لا يهمها إلا تحقيق مصالحها، وفرض وجودها عليه.

3 - نفسه، ص 25-32.

فاجعة فرض الحماية على المغرب⁴

كان فرض الحماية على المغرب يوم 30 مارس 1912م نكبة أليمة، وفاجعة كبرى لم يتحملها المغاربة، فبرزت حركة مسلحة لمقاومة المستعمر في مختلف أنحاء المغرب، دامت أزيد من عشرين سنة، (من سنة 1912م إلى سنة 1934م)، ثم أعقبتها المقاومة السياسية المنظمة التي ابتدأت سنة 1930م، ودامت هي بدورها أزيد من عشرين سنة، (من سنة 1930م إلى سنة 1953م)، ثم أعقبتها المقاومة المسلحة التي ابتدأت بمقاومة فردية (علال بن عبد الله)، واستمرت كمقاومة منظمة نشأ عنها جيش التحرير المغربي، الذي فرض الاعتراف باستقلال المغرب ورجوع بطل التحرير الملك محمد الخامس رحمه الله إلى عرشه.

الانتفاضة الشعبية ضد ظهير 16 ماي 1930م⁵

من أول ما قامت به السياسة الفرنسية بعد عامين من فرض الحماية على المغرب، هو إصدار ظهير سلطاني في 11 شتنبر 1914م، يقرر للقبائل الأمازيغية بأن (تُحكم وتُنظم طبق قوانينها وأعرافها الخاصة، تحت مراقبة السلطان)، أي أن المغاربة الموجودين في المناطق التي يعتبرونها مناطق أمازيغية تطبق عليهم قوانين خاصة بهم وغير خاضعة للقوانين الشرعية التي تطبق في بقية المناطق المغربية؛ من أجل تفكيك عرى الأخوة بين المغاربة، والتفريق بين العرب والأمازيغ.

ولقد ظل هذا المخطط الاستعماري غائبا عن أعين الكثيرين، حتى جاء ظهير 16 ماي 1930م ليفضحه. فكان أول من تنبّه لخطره، هو الزعيم عبد اللطيف الصبيحي، بعد أن أتيح له الاطلاع عليه قبل صدوره في الجريدة الرسمية، فأعلن هو ومن معه في الرباط وسلا عن استنكارهم لهذا الظهير البربري، وفي مقدمتهم أعضاء النادي الأدبي الإسلامي السلاوي. وبعد صدوره في الجريدة الرسمية، صار يطوف على المجتمعات والأندية، شارحا أخطاره، موضحا أضراره، داعيا إلى مقاوته بكل الوسائل الممكنة؛ ومن هذه الوسائل قراءة اللطيف بالمساجد. ولما ضاقت الإدارة الفرنسية ذرعا بهذه الحركة، قررت الانتقام من المناضل عبد اللطيف الصبيحي، فعقدت لجنة تأديبية بإدارة الأمور الشريفة لمحاكمته. فتمّ طرده من وظيفته، ونفيه بعد فترة وجيزة إلى مراكش، ثم نُقل إلى أزيلال، ثم

4 - مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، أبو بكر القادري، ص 33-36.

5 - مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، أبو بكر القادري، ص 37-57.

إلى تزيت، حيث بقي معتقلا ما يقرب من سنتين. كما أُلقي القبض على الأستاذ عبد الله الجراري بعد إلقائه خطبا ببعض مساجد الرباط. أما المعطي أبا خاي وعبد اللطيف العتابي، فقد سجننا بتهمة دعوتهما إلى الإضراب وقراءة اسم الله اللطيف، ثم نُفي عبد اللطيف العتابي بعد ذلك إلى ميدلت. وكذلك السيد محمد اشماعو الذي اعتقل بسجن الرباط مدة شهر ونصف؛ لأنه كتب رسالة خطية إلى قاضي المدينة، يوبّخه فيها على عدم مشاركته المومنين قراءة اللطيف، ثم أبعد إلى ميسور ومهيرجة، وبقي منفيا أزيد من سنتين، حتى تأخر إطلاق سراحه عن بقية المنفيين.

وسائل استعمارية للقضاء على الوحدة المغربية⁶

من أجل إنجاح مخطتها الاستعماري لتقسيم المغرب إلى عرب وأمازيغ، وخلق نزاعات بينهم، عمدت الإدارة الفرنسية إلى اتخاذ إجراءات تطبيقية في هذا الاتجاه، والسير بخطوات حثيثة نحو هذا الهدف. من ذلك:

1- العناية باللهجات الأمازيغية، ولذلك أسست الإدارة الاستعمارية سنة 1913م معهدا، أسمته معهد اللغة العربية واللهجات البربرية. وكان المقصود الأول من إنشائه، هو تركيز اللهجات الأمازيغية، والنفث في روع سكان المناطق الأمازيغية أن لغتهم الحقيقية هي الأمازيغية، وأن اللغة العربية دخيلة عليهم، وعليهم أن يهجروها.

2- كتابة اللهجات الأمازيغية بالأحرف اللاتينية، بدل كتابتها بأحرف عربية حسب ما كان معمولاً به عند العلماء والفقهاء الأمازيغ منذ قرون.

3- الاعتناء الزائد بالعادات والتقاليد الأمازيغية وإحيائها، وإفهام الشباب المنتمي للمناطق الأمازيغية أن تلك هي عوائده وتقاليده، ولا يجوز له الانفكاك عنها.

4- إنشاء وفتح مدارس فرنسية أمازيغية، يُمنع فيها التخاطب بالعربية، فأحرى تعليمها.

5- إنشاء محاكم عرفية أمازيغية، تُسجل أحكامها بالفرنسية.

6- منع تعليم القرآن والدين الإسلامي في المدارس الأمازيغية الفرنسية، وفي ذلك يقول موريس لوكلاي: يجب أن نُعلّم الأمازيغ كل شيء ما عدا الإسلام.

7- إنشاء مكتب للعدلية الأمازيغية، تحددت اختصاصاته بقرار مقيمي مؤرخ بـ 20 يونيو 1930م، أي بعد شهر واحد من صدور ظهير 16 ماي 1930م.

8- تشجيع الفوارق بين سكان المناطق الأمازيغية وسكان الحواضر، وبث النزعات العنصرية المقيتة بينهم.

9- استصدار قرارات من الوزير الأول بالاتفاق مع الكاتب العام للحماية، تُعين القبائل التي لا بد لها من أن تدخل في دائرة العرف الأمازيغي، وتوضع نصوص القوانين والتنظيمات التي ستطبق عليها (ظهير 11 شتنبر 1914م).

10- تأليف لجنة خاصة للأبحاث الأمازيغية، تعمل على جمع الدراسات المتعلقة بالقبائل الأمازيغية من جميع أطراف المغرب، وتُستخرج منها النتائج العملية التي من شأنها (أن تساعد فرنسا على تنظيم هذه القبائل وإدارتها بشكل يتفق مع المصلحة الفرنسية).

11- إنشاء الجماعات الأمازيغية أو الجماعات القضائية، وهي جماعات ألحق بها ضباط عسكريون فرنسيون ككتاب ومترجمين، وعُهد إليها بالفصل في القضايا المعروضة عليها على أساس العرف، بعيدا عن الشرع الإسلامي.

وسائل مقاومة الظهير البربري⁷

تعددت وسائل مقاومة المغاربة للظهير البربري، فمن التجمعات في المساجد إلى المظاهرات في الشوارع، إلى كتابة المقالات في الصحف والمجلات، إلى توزيع المناشير وتعليقها في الطرقات، إلى كتابة المذكرات الاحتجاجية وإرسال الوفود والعرائض إلى المسؤولين، إلى الاتصال بالجمعيات والأحزاب السياسية في الداخل والخارج وكتابة البيانات الموقعة من أبرز الشخصيات في العالمين الإسلامي والأوروبي، إلى الدعوة إلى مقاطعة البضائع الفرنسية. إلى غير ذلك من الوسائل التي أثرت التأثير العميق في السلطات الاستعمارية، حيث لم ينفعها أمام هذا التيار الجارف من المعارضة في الداخل والخارج، لا ملء السجون، ولا نفى المناضلين، ولا إعطاء الوعود. وزاد حقدتها وغطرستها لما انتقلت مقاومة الظهير البربري إلى المناطق الأمازيغية نفسها، وحين شرع سكانها في التحرك بما

7 - مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، أبو بكر القادري، ص 114-118.

أوجبتهم عليهم عقيدتهم ووطنيتهم، وأصبح الفلاحون والرعاة والطلبة يتغنّون بالأناشيد الوطنية الحزينة، التي تبكي حالة الوطن، وما يكيد لها الأجنبي من دسائس.

إلغاء الظهير البربري⁸

بعد الضجة العظمى والاحتجاجات المتوالية، وتضامن العالم الإسلامي، قررت السلطات الاستعمارية إلغاء الفصل السادس من ظهير 16 ماي 1930م، والذي جاء فيه: "إن المحاكم الفرنسية التي تحكم في الأمور الجنائية، حسب القواعد الخاصة بها، لها النظر في زجر الجنايات التي يقع ارتكابها في النواحي البربرية، مهما كانت حالة مرتكب الجناية". وقد اعتبر المناضل عبد اللطيف الصبيحي إلغاء هذا الفصل نصرا كبيرا، وخطوة هامة في محو السياسة التي كانت السلطات الاستعمارية تود تطبيقها على الأمازيغ؛ غير أن زعماء وطنيين آخرين لم يقنعوا بإلغاء الفصل السادس من الظهير البربري، وظلوا مصرين على المطالبة بإلغاء جميع فصوله. ولم يتحقق لهم ذلك إلا بعد حصول المغرب على استقلاله، حيث صدر ظهير شريف في الجريدة الرسمية بتاريخ 18 ماي 1956م، يلغي كل مقتضيات ظهير 16 ماي 1930م.

التنظيم السري للحركة الوطنية المغربية (الزاوية والطائفة)⁹

في جو الحركة الشعبية العارمة التي تصدت للظهير البربري سنة 1930م، اجتمع ثلاثة من المناضلين في أسطوانة فيندق برحبة القيس، إحدى أحياء مدينة فاس العتيقة، وهم: علال الفاسي، وأحمد مكوار، وحمزة الطاهري؛ وقرروا تأسيس جمعية (الزاوية) السرية. ثم انضمت إليهم ثلة أخرى من الوطنيين، فعقدوا اجتماعا تأسيسيا بمنزل أحمد بوعباد، تدارسوا فيه قوانين هذه الجمعية، وأقروها وأقسموا عليها.

فكانت هذه الفئة الصغيرة المتكتمة، هي التي تعمل علناً مع العديد من المغاربة الذين كوّنوا الوفد الوطني الأول المنتخب في المجلس البلدي بفاس، والذي رفع لجلالة الملك محمد الخامس رحمه الله لأول مرة وثيقة الاحتجاج الشعبي ضد السياسة البربرية، والمطالبة بتحرير السلطة المغربية من الهيمنة الفرنسية عليها.

8 - مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، أبو بكر القادري، ص 123-125.

9 - نفسه، ص 142-124.

وبعد أن ظهرت في ميدان العمل الوطني نخبة طيبة من شباب الوطن ورجاله، في حواضره وبواديها، توسم فيهم أعضاء (الزاوية) الخير والسر، أسسوا منهم ما سموه بـ (الطائفة)، التي سرعان ما حلت محل (الزاوية)، فكان لها الفضل في إرساء القواعد الأولى للحركة الوطنية المغربية وتنظيمها وتسييرها.

ومع تزايد عدد المنتسبين لـ (الطائفة) سنة بعد سنة، تكونت جماعات أو خلايا سرية في بعض ربوع المملكة، أدى أفرادها يمين الإخلاص لله والوطن والملك، مع الالتزام بكتمان الأسرار. ومن بين هذه الجماعات أو الخلايا، جماعة تسمى (فتح)، وهي واحدة من خلايا الحزب الوطني بسلا، التي كان لها الفضل في انخراط عدد من المناضلين في (الطائفة)، ممن وقعوا فيما بعد على وثيقة المطالبة بالاستقلال عام 1944م.

العيد الوطني الذي فرضه الشعب سنة 1933م¹⁰

لقد كانت السلطات الاستعمارية تُبَيِّت للشعب والعرش معا؛ تُبَيِّت للشعب بمحاربة جميع مقوماته الأساسية، من لغة ودين وحضارة وقيم، وتُبَيِّت للعرش بنزع جميع اختصاصاته التشريعية والقضائية والسياسية، لتبقيه جسدا دون روح، وهيكل دون نفوذ. غير أن الحركة الوطنية كانت على يقين تام من أن هذا التآمر الاستعماري لا يمكن أن يقاوم إلا بالوحدة والتضامن والالتحام بين الملك وشعبه؛ ولهذا كان شعارها (الوحدة) منذ بداياتها: الوحدة في العقيدة، والوحدة في العمل، والوحدة في اللغة، والوحدة مع العرش.

فالشعب بالعرش، والعرش بالشعب، ولن يفترقا. وما كان لحركة وطنية يرعاها ملك مخلص، ومطالب يتجاوب معها عاهل شاب صادق، أن تفشل فلا تحقق ما تطمح إليه. وما كان للسياسة الاستعمارية المفرقة أن تنجح، وقد وقف ضدها شعب متمسك بوحدة، وعرش حريص كل الحرص على الاستمساك بحقه وحقوق شعبه.

وقد ازداد الالتحام والوثوق بين الحركة الوطنية وملكها الهام، مع توالي الأيام والشهور والأعوام. فكان من نتائجه المحموددة دعوة بعض الوطنيين المخلصين إلى اتخاذ يوم جلوس جلالة

10 - مذكراتي في الحركة الوطنية المغربية، أبو بكر القادري، ص 154-164.

الملك محمد الخامس على العرش عيداً وطنياً، يُحتفل فيه بتعلق الشعب بملكه، والتحام الملك مع شعبه.

وكان أول من طالب بذلك، هو السيد محمد حصار، وذلك في مقال له نشر في أوائل سنة 1933م بمجلة (المغرب)، التي كان يصدرها السيد محمد صالح ميسه الجزائري.

ومن ثم، تجنّد الشباب الوطني في كل من سلا والرباط وفاس ومراكش للاحتفال بالذكرى الأولى يوم 18 نوفمبر سنة 1933م، وتأسست لجان وطنية بهذه المدن للدعوة إلى إقامة الحفلات بهذه المناسبة السعيدة.

ففي مدينة سلا - مثلاً - نشطت اللجنة الوطنية الموكل إليها تنظيم الاحتفال، ودعت إلى إغلاق المدارس والإدارات، وإظهار معالم الزينة والفرح، ووجهت البرقيات المتعددة من العلماء والأشراف والأعيان والشباب إلى صاحب الجلالة، تُهنّئ به بعيد جلوسه على العرش، وتتمنى له العمر المديد. وذهب تلامذة (المكتب الإسلامي) ومعلموهم إلى المكان الذي أُعد للاحتفال، وهم يُشدون الأناشيد الوطنية، ويتغنّون بأعجاد العرش العلوي المجيد. كما قرئت آيات بينات من القرآن الكريم في المساجد، ورُتلّت أمداح نبوية تجاوباً مع المحتفلين. وبعد انتهاء الحفل الوطني الأول من نوعه، نظمت جموع الشباب التي كانت مجتمعة تظاهرة وطنية، وقصّدت منزل الباشا مطالبة بأن يُصبح هذا اليوم عيداً رسمياً تُعطل فيه الأعمال، وتُشاع فيه معالم الزينة والأفراح. كما تقرر توجيه جماعة من الشباب السلوي إلى الشباب الوطني الرباطي لتقديم التهاني، وورد أيضاً على مدينة سلا وفد من الشباب الوطني الرباطي للتهنئة وإظهار الالتحام.

ولقد اندهش المستعمر من هذه المبادرة الشعبية، التي لم يكن ينتظرها، والمفاجأة التي لم يكن يتوقعها، وأدرك أن مخطّطه الرامي إلى فصل الملك عن شعبه قد ذهب أدراج الرياح، بل أدى على العكس من ذلك إلى زيادة ارتباط المغاربة بالعرش العلوي، والتشبث بالجالس عليه، والتغني به، وتعليق الآمال الكبيرة عليه.

وبعد أن بلغته أخبار بأن الشباب الوطني يستعد كل الاستعداد للاحتفال بذكرى جلوس الملك محمد الخامس على العرش في 18 نوفمبر 1934م كما احتفل بها في 18 نوفمبر 1933م، وأن الشعراء والخطباء قد تحركت مشاعرهم وانتفضت قرائنهم، وهم في غمرة من النشاط والاستعداد،

رضي بالأمر الواقع وسمح في 26 أكتوبر 1934م بإصدار قرار وزيري من ثلاثة فصول، يُنظم كيفية الاحتفال بذكرى 18 نوفمبر، ويعتبر ذلك اليوم عيداً رسمياً، يحتفل به المغاربة، وتُعطّل فيه الأعمال، وتُترىّن الأسواق، ويتقبل باشا المدينة تهاني الأعيان. أما في العاصمة، فيتركب وفد من أعيان المدينة وباشاها ليقدموا التهاني إلى جلالة الملك.

وينص أحد الفصول على أن الاحتفال لا يتعدى يوماً واحداً، وأن لا تُلقى فيه خطب ولا قصائد، ولا يرد على المحتفلين وفود غيرهم.

مسألة التربية والتعليم في عهد السلطان المولى يوسف

د. عبد الرحيم الحسناوي
الرباط

يندرج الحديث عن مسألة التربية والتعليم في عهد السلطان المولى يوسف¹ رحمه الله في إطار سياق تاريخي معروف وهو الحماية الفرنسية التي فرضت على المغرب، فالمولى يوسف يعتبر أول سلطان في عهد الحماية، - إذا استثنينا طبعاً الفترة القصيرة التي قضاها المولى عبد الحفيظ رحمه الله بين 30 مارس 1912م تاريخ توقيع معاهدة الحماية واستقالته ورحيله إلى فرنسا في 13 غشت 1912م - وكل عهده الذي امتد من 1912م إلى 1927م مر في مغرب فقد استقلاله ووحدته السياسية والترايبية.

بهذا الفهم الأولي، فإن هذه الورقة البحثية لن تسعى بالضرورة إلى الوقوف عند مختلف جوانب نظام التربية والتعليم خلال الفترة الزمنية الواردة أعلاه، سواء من حيث طرق التعليم وأساليبه ومحتوياته. وإنما سينصب اهتمامنا وبدرجة كبيرة على إبراز بعض الملامح العامة لمسألة التربية والتعليم في هذه الفترة الحرجة من تاريخ المغرب (الاستعمار)، ولاحتواء أطراف هذه الورقة داخل بناء نسقي محكم، فقد عملنا على تقسيمها إلى ثلاثة محاور رئيسية.

1 - السلطان يوسف بن الحسن العلوي رحمه الله، ويعرف شعبياً في المغرب باسم مولاي يوسف، كان سلطاناً من السلالة العلوية، حكم المغرب من 1912م إلى سنة 1927م. يعتبر ثاني سلاطين المغرب في عهد الحماية الفرنسية، حيث تولى الحكم بعد تنازل أخيه السلطان مولاي عبد الحفيظ عن العرش مباشرة بعد توقيع معاهدة الحماية سنة 1912م ونقل حكمه من فاس إلى الرباط. شهد حكمه العديد من الاضطرابات والثورات المتكررة ضد الاحتلال الفرنسي والإسباني. ومن أهمها ثورة الأطلس المتوسط بقيادة موحا وأحمو الزياني منذ بدايات حكمه وثورة محمد بن عبد الكريم الخطابي في الريف.

وفي مجال التأليف العلمي، فقد استمرت حركة التأليف والتصنيف في عهده لكن دونها حدوث أي انبعاث فكري. وقد صدرت في عهده مؤلفات لأقطاب علماء مجالسه العلمية أمثال العلامة المهدي الوزاني، كما أمر علماء هذه المجالس بتأليف كتب حول القضايا المهمة، التي كانت تشغل بال الرأي العام المغربي عموما والنخبة المثقفة خصوصا، من حملة الفكر الديني والعلمي والثقافي بالبلاد؛ ومن ذلك أمره للعلامة عبد الرحمان ابن زيدان، بتدوين ما أنشده الشعراء في مدحه من القصائد والأشعار. وقد جمعها ابن زيدان امثالا لتعليماته في ديوان سماه: "اليمن الوافر الوفي بمديح الجناح اليوسفي"⁵.

أولى المولى يوسف اهتماما خاصا لمسألة التربية والتعليم، فقد اهتم بتعليم أبناء شعبه اهتماما كبيرا، وقد تجلّى ذلك في محطات كثيرة نذكر منها على سبيل المثال لا الحصر: بناء المدارس لأبناء الشعب المغربي، يتربون فيها تربية دينية وعلمية وأدبية، وكذا تشجيع الحركة العلمية والأدبية، والتأكيد على ضرورة دراسة كل ما هو مغربي أو يمت إلى المغرب بصلة. هذا بالإضافة إلى الدعوة إلى العلم ونبد الجهل، وذلك كمطلب ضروري لا بديل عنه لمواجهة المستعمر؛ فالعلم اعتبر السبيل الوحيد لمواجهة المستعمر من جهة، ولخوض غمار التحديات الحضارية من جهة أخرى، وهذا المطلب الحتمي الذي يكتسي مفهوما آليا للعلم (ك تقنية وسلاح) وجهاديا (ك غاية وهدف) وحضاريا (انطلاقا من التفوق العلمي للغرب)⁶.

من حيث التنظيم والتسيير، فقد بقي التعليم السائد في المدارس القرآنية والمدارس القديمة على ما كان عليه، ذلك أن المغرب قبل الحماية لم يكن يتوفر على تعليم عمومي أو وزارة للتعليم. وبمجيء الحماية عرف هذا التعليم الشعبي بالتعليم العتيق، والذي عملت سلطات الحماية على تهميشه وتهميش خريجيه، عوض إصلاحه ليواكب العصر، وذلك إمعانا في ضرب وطمس الهوية المغربية الإسلامية⁷. وبالمقابل خلقت مدارس عصرية تشرف عليها مديرية التعليم. وتجدر الإشارة أيضا إلى

5 - النهضة العلمية لابن زيدان، مصدر سابق، ص: 111.

6 - عبد المجيد عينية: "مواقف المغاربة من قضايا التربية والتعليم في العقود الأولى من عقد الحماية الفرنسية الإسبانية"، مجلة فضاءات تربوية، العدد الثاني، السنة الثانية، مارس 1996م، ص: 167.

7 - محمد الناصري: رحلة محمد الخامس إلى طنجة، 9- 13 أبريل 1947م، الرباط، منشورات المندوبية السامية لقدماء المقاومين وأعضاء جيش التحرير، 2007م، ص: 156.

أن التعليم العصري للمسلمين هو الآخر قد نظم ما بين 1912م و1942م على أساس المبادئ التي صاغها ليوطي وطورها جورج هاردي (Georges Hardy) سنة 1924م، وطبقتها مديرية التعليم العمومي في ارتباط وثيق مع سلطات المراقبة والمديرية المكلفة بشؤون المغاربة⁸.

في سياق الحديث عن الحركة التعليمية في عهد المولى يوسف، لابد من التركيز والتذكير بوضعية القرويين في بدايات عهد الحماية ودور السياسة الاستعمارية الفرنسية التي نهجها المقيم العام الماريشال ليوطي (Lyautey) في تدهورها عن طريق تطبيق الرقابة وإحباط إرادة الإصلاح التي عبر عنها بعض المثقفين المستنيرين وأعيان فاس والمخزن.

وقد عبر السلطان المولى يوسف بدوره عن إرادة إصلاح القرويين، وعقد لهذا الغرض في قصره سلسلة من الاجتماعات مع العلماء وقد تجلّى ذلك في خطاب رسمي وجهه إلى العلماء في سنة 1912م جاء فيه: "تعلمون اهتمامنا بالقرويين، وأنه نظرا لتطور الأحوال هنا فإن رغبتنا أن تتطور هي بدورها، فتصبح خاضعة لنظام معين كسائر المؤسسات العصرية"⁹. ثم كلف في نفس السنة قاضي فاس بضبط لائحة العلماء المدرسين بالقرويين بصفة فعلية لتنظيم الرواتب وحدد العدد في سبعين عالما. لكن إرادة المولى يوسف كانت غير مجدية، لأن الإقامة العامة كانت هي صاحبة السلطة الفعلية فأحبطت المحاولة بدعوى أن الميزانية لا تتحمل أكثر من راتب اثني عشر عالما¹⁰.

اعتبر الفرنسيون القرويين مركزا للمقاومة الاستعمارية، وقال عنها ليوطي إنها "البيت المظلم"، وقد يكون في تصورهم أن ظلامها يحجب عن المغاربة أهدافهم الاستعمارية. ولهذا أنشأوا مدارس للتعليم العصري¹¹ وهي في الواقع لتكريس أغراضهم وأهدافهم فيما ظلوا يقاومون الإصلاح التربوي والتعليمي بالقرويين. هذا الإصلاح عبر عنه المولى يوسف ونخبة من العلماء

8 - ألبير عياش: المغرب والاستعمار حصيلة السيطرة الفرنسية، ترجمة عبد القادر الشاوي، نور الدين سعودي، مراجعة إدريس بنسعيد وعبد الأحد السبتي، الدار البيضاء، دار الخطابي للطباعة والنشر، 1985م، ص: 361-362.

9 - عبد الهادي التازي: جامعة القرويين، الجزء الثالث، بيروت، دار الكتاب اللبناني 1972م، ص: 743.

10 - محمد عمراني: "حركات شباب جامع القرويين فيما بين 1919-1934م"، مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية، القنيطرة، العدد 4، السنة، 2004، ص: 36.

11 - دانيال ريفي: "المدرسة والاستعمار في المغرب"، ترجمة وحيد الرحمان، مجلة الثقافة الجديدة، العدد 12، السنة، 1999م، ص: 18.

أمثال محمد الحجوي الذي ألقى محاضرة حول إصلاح التعليم بالمغرب سنة 1922م¹² نبه فيها إلى مخاطر الدراسة التلقينية، وإلى وجوب تغيير أساليب التعليم من خلال نقاط عديدة تلخص في مجملها في تكوين المعلمين وإصلاح البرامج التعليمية وكذا طرق التعليم.

تركز التعليم الديني في جامعة القرويين ولم تكن الدراسات الإسلامية في هذه المرحلة التاريخية من المعانات في مستوى قوتها وقدرتها على العطاء بقدر ما كانت مصلا واقيا دون أن تكون دواء ناجعا، فقد كانت دراسات للمتون والشروح والتعليقات والخواشي، ولم تكن دراسة لحياة الفكر وإبداعاته وملاحظة قضايا العصر ومشكلاته. كما كانت دراسة العلوم الشرعية تعتمد في التعليم الابتدائي على المرشد المعين، وهو كتاب ألفه أحد فقهاء فاس أحمد بن عاشر، يتضمن العقائد على الطريقة الأشعرية والعبادات على الفقه المالكي والتصوف بطريقة الجنيد، فكانوا يحفظونه ويتداولونه في المدارس الأولية، ثم يدرسون الفقه برسالة أبي زيد القيرواني التونسي، وهو كتاب فقهي متسع في مجال الدراسة الشرعية، وبالأخص في باب المعاملات، وبعد الرسالة يدرس في التعليم العالي مختصر الشيخ خليل بشروحه المعروفة، ويدرس الفقه التطبيقي في علم الفرائض والموارث وعلم الوثائق.

وإذا كان المغرب اعتاد أن يستفيد من حركة التاريخ، فقد اقتبس إبان فترة الحماية كل ما يناسب التطور عن الحضارة الفرنسية، فتعلم المغاربة اللغة الفرنسية، ودخلوا الجامعات الفرنسية، وتخصصوا في عدة ميادين. لقد استفاد المغاربة من التعليم الفرنسي، بالرغم من أن الحماية الفرنسية في المغرب فرضت على المغاربة تعليما ضعيفا لا يعتني باللغة العربية ولا بالحضارة المغربية.

2- التعليم الاستعماري في عهد الحماية وأهدافه

مع بداية الحماية الفرنسية سنة 1912م، ستتخذ مسيرة التعليم منحى مغايرا، إذ حاول المستعمر إعادة هيكلة المجتمع المغربي في كل بنياته الثقافية والتعليمية والسياسية والاقتصادية... بما يتواءم ومشروعه الاستعماري وأهدافه. وعلى هذا الأساس لم يكن مشروع المستعمر في مضمار التعليم بالمغرب عفويا أو ارتجاليا، إنما وضع ضمن إطار منهجي دقيق ومحكم. ولذلك وقع التساؤل، منذ البداية عن الأسس السياسية لهذا المشروع كما يلي: لماذا تعليم المغاربة؟ وبأي طريقة؟ وأي مغاربة؟

12 - نجاة المريني: "مسألة تعليم الفتاة في الفكر الإصلاحي المغربي: علال الفاسي ومحمد الحجوي نموذجين"، مجلة دعوة الحق، العدد 363، السنة، 2001م، ص: 106.

لعل الإجابة على مثل هذه التساؤلات، يشكل في اعتقادنا أهم المرتكزات التي ميزت الخطاب التربوي الاستعماري، وكذا الاستراتيجية المعتمدة في تمرير هذا الخطاب وأهدافه. ومن بين أدل التعابير التي توضح بجلاء خلفيات المشروع التعليمي الاستعماري، ما صرح به جورج هاردي مسؤول الحماية في قطاع التعليم بالمغرب: "...إن انتصار السلاح لا يعني النصر الكامل، إن القوة تبني الإمبراطوريات ولكنها ليست هي التي تضمن لها الاستمرار والدوام، إن الرؤوس تنحني أمام المدافع، في حين تظل القلوب تغذي نار الحقد والرغبة والانتقام، يجب إخضاع النفوس بعد أن تم إخضاع الأبدان. إن كانت هذه المهمة أقل صخبا من الأولى فإنها صعبة مثلها، وهي تتطلب في الواقع وقتا أطول"¹³.

لم تكن سلطات الحماية، تهدف إلى نشر التعليم من أجل أهداف تحديثية وإنسانية كما كان يروج الخطاب الاستعماري آنذاك، وإنما كانت تريد أن تجعل من التعليم أداة لخدمة مصالحها المستقبلية، ولتحقيق هذه المصالح لجأت فرنسا إلى إيجاد أنماط وأصناف مدرسية تقوم على عزل نخوي وعرقي وطبقي إذ كان هناك تعليم أوروبي، فرنسي أساسا، وآخر يهودي، وثالث أهلي إسلامي (تعليم عمومي) يتضمن بدوره مدارس النخبة ومدارس الطبقات الشعبية والمدارس الفرنسية البربرية المخصصة لأبناء المناطق البربرية بالأطلس خاصة، كل هذا إلى جانب الثانويات الإسلامية ومؤسسات التعليم الأصيل التقليدي. وعلى هذا الأساس تم وضع التعليم الفرنسي في أعلى الهرم من حيث الأهمية، فيما وضع التعليم الإسلامي الأهلي في أسفله، لأنه كان ينتظر من مدارس الأعيان إنتاج وإعادة إنتاج النخبة من أبناء العائلات الميسورة التي حرص الاستعمار على إبقائها في مكانتها الاجتماعية، ومن ناحية أخرى فقد كان على المدارس الابتدائية، المهنية بالحواضر والبوادي أن تقوم بوظيفة إنتاج قوة العمل من أبناء المبعدين والمهمشين اجتماعيا واقتصاديا وثقافيا...

لم يكن ليوطي يكتفي فقط بالاهتمام باستمالة النخب لمؤازرة مخططاته الاستعمارية وإضفاء المشروعية عليها، بل كان يولي عناية خاصة لتثقيف أبنائها لتخلف الأطر التقليدية للإدارات المخزنية، وتلعب دور الوسيط بين سلطات الحماية والمواطنين، فأعد لها تعليمًا خاصًا بها في إطار سياسته التعليمية النخبوية التقليدية، هذه السياسة التي تتميز ببعدين أساسيين: الأول يهدف إلى

13 - Georges Hardy, «L'éducation française au Maroc», *Revue de Paris*, 15 avril 1921.

حرمان الجماهير من أي تعليم جدي أما البعد الثاني، فهو ينطلق من سياسة الأعيان التي تركز على إعداد دعائم مغرب الغد في نطاق الوسط الاجتماعي للطبقة المتعاونة.

لقد نظم التعليم إبان فترة الحماية وفق أسس وضع ليوطي مبادئها وطبقها مدرءا مصلحة التعليم، وتقوم هذه المبادئ على مراعاة الأوضاع البشرية والاجتماعية في البلاد والابتعاد- بالنسبة للمغاربة- عن التعليم النظري مع توجيهه توجيهها مهنيا في المدن، وزراعيها في البوادي وكانت الغاية من ذلك خدمة المصالح الإمبريالية الفرنسية في المغرب. وعموما يمكن أن نجمل محاور المخطط التعليمي الفرنسي بالمغرب خلال فترة الحماية في النقاط التالية:

أ- التعليم الانتقائي الطبقي

يعتبر ميدان التربية والتعليم من أهم الميادين التي حركها الاحتلال الفرنسي لخدمة أهدافه الاستعمارية ويظهر ذلك وبصورة واضحة في التمييز بين طبقات المجتمع في تلقي أنماط من التعليم، والتي لا تكون بالضرورة ذات توجه واحد، بل تتميز عن بعضها في الأهداف والطرق والوسائل. والهدف من ذلك حسب ما يستفاد من النصوص التاريخية هو خلق نخبة مثقفة تثقيفا فرنسيا تفوض إليها على المدى البعيد والمتوسط صلاحية تنفيذ مخططات فرنسا السياسية والاقتصادية والثقافية، بمقابل شريحة متعلمة من ذوي النفوذ المتوسط وخاصة على المستوى الاجتماعي، وتبقى بعد ذلك الجماهير البدوية المبعثرة في جميع أنحاء البلاد التي ليس من الضروري تعليمها وتثقيفها إلا بقدر ما يسمح به محيطها الفلاحي والرعوي، وينفصل عن كل هذا طائفة من اليهود والأوربيين الذين يجب الحفاظ لهم على نمط خاص من التعليم يساير كليا النظام الأوربي.

ويحدد جورج هاردي الخطوط العريضة لهذا التصور الاستعماري الفرنسي فيما يخص مسألة التربية والتعليم، وذلك بوضعه لمخطط إعادة هيكلة التعليم بالمغرب، وهو مخطط يكرس نوعا من الطبقة التعليمية، وفي هذا الصدد يقول: "... وهكذا فنحن ملزمون بالفصل بين تعليم خاص بالنخبة الاجتماعية، وتعليم لعموم الشعب: الأول يفتح في وجه أرستوقراطية مثقفة في الجملة توقفت عن النمو الفكري بسبب تأثير العلوم الوسيطة... إن التعليم الذي سيقدم لأبناء هذه النخبة الاجتماعية تعليم طبقي يهدف إلى تكوينها تكوينا منظما في ميدان الإدارة والتجارة، وهي الميادين التي

اختص بها أبناء الأعيان المغاربة"¹⁴. أما النوع الثاني من التعليم فهو التعليم الشعبي الخاص بالجماهير الفقيرة والجاهلة جهلا عميقا، وهو يتنوع بتنوع الوسط الاقتصادي: في المدن يوجه التعليم نحو المهن اليدوية خاصة مهن البناء، وإلى الحرف الخاصة بالفن الأهلي. أما في البادية فيوجه التعليم نحو الفلاحة... وأما المدن الساحلية فسيوجه نحو الصيد البحري والفلاحة. وأما عن المواد التي ستتخلل هذا التعليم فهي اللغة الفرنسية التي بواسطتها سيتمكن من ربط التلاميذ بفرنسا¹⁵.

ب) - لغة التدريس وتدريس اللغة

إن خاتمة كلام هاردي تكشف وبقوة العلاقة بين اللغة والثقافة والمجتمع، في خطط التعليم الفرنسي الاستعماري بالمغرب، وخاصة تأكيده على اللغة الفرنسية التي ستمكن حسب رأيه من ربط التلاميذ بفرنسا. ولئن كانت اللغة الفرنسية العامل الحاسم في التواصل ونقل الثقافة؛ فإن السياسة اللغوية في النظام الاستعماري الفرنسي عرفت تخطيطا دقيقا تمثل في تشجيع التلقين باللغة العربية وعدم اعتبار هذه الأخيرة لغة علم، مع الاحتفاظ بها تدريجيا كلغة للتواصل اليومي فقط، على أن يعمل الاستعمار بعد ذلك على الفصل بين العرب والبربر في استعمال اللغة العربية، عن طريق تشجيع استخدام اللهجات البربرية إلى جانب الفرنسية كلغة للتدريس. ولا نشك في أن هذا التوجه اللغوي كان القصد منه هو إضعاف الروابط القائمة بين اللغة العربية والدين باعتبارها لغة القرآن، وبها دونت أغلب مصادر التراث والثقافة الإسلامية.

ولم يخف المقيم العام بالمغرب رمز الاستعمار الشهير الجنيرال ليوطي هذا التوجه، حينما أصدر دوريته الشهيرة بتاريخ 16 يونيو سنة 1919م حول لغة التعليم بالمغرب؛ إذ يقول: "من الناحية اللغوية علينا أن نعمل مباشرة على الانتقال من البربرية إلى الفرنسية... فليس علينا أن نعلم العربية للسكان الذين امتنعوا دائما عن تعلمها، إن العربية عامل من عوامل انتشار الإسلام؛ لأن هذه اللغة يتم تعلمها بواسطة القرآن بينما تقتضي مصلحتنا أن نطور البربر خارج نطاق الإسلام"¹⁶.

14 - محمد عابد الجابري: التعليم في المغرب العربي، الدار البيضاء - بيروت، المركز الثقافي العربي، 1989م، ص: 18.

15 - مادي حسن: السياسة التعليمية بالمغرب ورهانات المستقبل، الدار البيضاء، مطبعة النجاح الجديدة، منشورات مجلة علوم التربية، 1999م، ص: 22.

16 - المرجع نفسه، والصفحة نفسها.

ومباشرة بعد صدور دورية ليوطي نجد موريس لوجلي (Maurice Le Glay) ينشر مقالة مؤيدة لهذا التوجه، وذلك في السنة نفسها وفي هذا السياق يقول: "... إن التعريب سيقود البربر إلى إسلام تام ونهائي، وإلى أن توجد بالمغرب - وعلى أيدينا نحن وهو ما نرفضه - كتلة إسلامية لا نظير لها... والمشروع يفرض أن يتم تطوير سكان الجبال باللغة الفرنسية المعبرة عن فكرنا، سوف يتعلم السكان البرابرة اللغة الفرنسية وسوف يحكمون بالفرنسية... علينا أن نقلع في كل مكان عن الحديث باللغة العربية، وإعطاء الأوامر باللغة العربية إلى قوم هم مجبرون على فهمنا وإجابتنا... ولذلك ينبغي العمل أولا وقبل كل شيء على تحويل مصالح الشعب المغربي في اتجاه مصالحنا نحن، وأيضا تحويل مصيره إن أمكن، وليس بدافع عاطفي محض، ولكنه بدافع فهم واضح للهدف المبتغى، والنتائج المتوخاة لمصالح قضيتنا"¹⁷.

ج) - تمزيق الهوية الوطنية

لم تنظر سلطات الحماية الفرنسية إلى المغاربة المسلمين كوحدة معنوية، بل صنفتهم في نماذج عديدة: عرب وبربر، سكان مدن وبوادي، طبقات اجتماعية عليا وعوام. ولهذا السبب تنوعت المدارس والمناهج وصار التعليم ممزقا ومعقدا. وسعت فرنسا بكل الوسائل إلى تمزيق الهوية المغربية، ولهذا الغاية تدخلت لمنع تدريس بعض المواد التي تجد فيها خطرا على مصالحها كتاريخ المغرب الذي سيسهم في تكوين وإذكاء الشعور الوطني.

وقد توخت الدولة المستعمرة من برنامجها هذا إعلان الظهير البربري 1930م وهي السنة التي سيكشف فيها النقاب عن منحى آخر للسياسة التعليمية الفرنسية بالمغرب، وذلك بالفصل بين ما كانت تسميه سلطات الحماية بالعنصر العربي من جهة، والعنصر البربري من جهة ثانية، فصلا حضاريا شاملا كان المقصود منه فرنسة وتنصير القسم الأكبر من الشعب المغربي / البربري.

وهكذا قررت فرنسا إنشاء ما سمته بالمدارس البربرية لتفكيك الهوية المغربية وإيجاد جيل تابع لفرنسا هجين الثقافة، مفتقد للهوية تابع لفرنسا. ولقد أفصحت فرنسا بوضوح عن الهدف من إنشاء هذه المدارس، وفي هذا الصدد يقول بول مارتي (Paul Marty): "لقد حصل الاتفاق بين إدارة التعليم العمومي وإدارة الشؤون الأهلية، وتحددت بذلك معالم ومبادئ سياستنا التعليمية البربرية

17 - المرجع نفسه، ص: 23.

بكامل الدقة. إن الأمر يتعلق بمدارس فرنسية بربرية تضم صغار البربر يتلقون تعليماً فرنسياً محضاً وسيطر عليها خصوصاً اتجاه مهني فلاحى. إن البرنامج الدراسى فى هذه المدارس يشتمل على دراسة تطبيقية للغة الفرنسية، لغة الحديث والكلام، بالإضافة إلى مبادئ الكتابة والحساب البسيط، ونتف من دروس التاريخ والجغرافيا، وقواعد النظافة ودروس الإنشاء... إن المدرسة الفرنسية البربرية إذن هي مدرسة فرنسية بالمعلمين بربرية بالتلاميذ، وليس هناك مجال لأي وسيط أجنبي. إن أي شكل من أشكال تعليم العربية، وأي تدخل من جانب الفقيه، أو أي مظهر من المظاهر الإسلامية لن يجد مكانه في هذه المدارس، بل سيقصى منها جميع ذلك بكل صرامة⁽¹⁸⁾. وهكذا يصبح في المنظومة التربوية الفرنسية فقيه الكتاب ومعلم القرآن ومدرس اللغة العربية، كل ذلك وسيطاً أجنبياً كما عبر عن ذلك في النص، والحال أن الميدان الخاضع لتلك المنظومة هو وطن المسلمين وأبناء المسلمين؟

3 - احتواء وتوجيه النظام التعليمي السائد

بعد هذا التصور التعليمي الذي خطه المستعمر الفرنسي؛ يبقى الإشكال مطروحاً وقائماً في كيفية التعامل مع النظام التربوي السائد في البلد، وخاصة نظام التعليم بجامعة القرويين، وعموماً فقد اعتبر الفرنسيون القرويين مركزاً للمقاومة الاستعمارية، لذلك نعتها ليوطي بالبيت المظلم. ولم يكن التخطيط لمواجهة هذا الإشكال ليغيب عن بال المستعمر؛ ويتجلى ذلك بوضوح فيما كتبه بول مارتي في كتابه "مغرب الغد" الصادر عام 1925م، حيث يقول: "إنه على الرغم من أن القرويين تجتاز أزمة خانقة فإنه لن تموت، بل لابد أن تتطور ذاتياً بتأثير الأفكار الواردة من الشرق، وفي هذه الحالة سينقلب الأمر ضد الحماية وتصبح عاجزة عن التحكم في الأحداث. ولذلك يجب أن نعمل على تجديد القرويين؛ لأنه إن لم نفعل هذا التجديد الذي تفرضه الظروف؛ سيتم بدونا وضدنا. إن تجديد القرويين سيمكننا من أن نحفظ في المغرب بأولئك الشباب النازحين من عائلات مرموقة، بدل تركهم يذهبون إلى الشرق لتلقي العلم الذي سيحرمون منه من جامعة القرويين في حالة عدم تجديدها. ماذا يمكن أن يأتي به هؤلاء الشباب من الشرق؟ ألا يعودون بميول إنجليزية؟ أو بروح النهضة الإسلامية والتعصب الوطني؟⁽¹⁹⁾.

18 - Paul Marty, *Le Maroc de demain*, Paris, Comité de l'Afrique française, 1925.

19 - محمد عابد الجابري: التعليم في المغرب العربي، مرجع سابق، ص: 19.

ومن هنا يتضح أن التدابير المختلفة والمقترحة من أجل تجديد القرويين، والخاضعة لمراقبة فرنسية دقيقة ليست أبدا تدابير ثورية، إنها تدابير ستمكن سلطات الحماية من توجيه التطور الداخلي لهذه الجامعة، وهو التطور الداخلي الذي بدأ يعلن نفسه منذ الآن.

ولئن كانت جامعة القرويين تضم أسلاك التعليم كلها من الابتدائي إلى الجامعي؛ فإن المستعمر وضع مخططا لبناء تعليم جامعي مواز للقرويين؛ فتم تأسيس معهد عال تحت اسم "المدرسة العليا الفرنسية البربرية سنة 1914م"⁽²⁰⁾ ثم تحول سنة 1920م إلى "معهد الدراسات المغربية العليا"⁽²¹⁾، حيث احتلت دراسة اللهجات البربرية والإثنوغرافيا والفلكلور المغربي مكان الصدارة فيه، ويقام المعهد جلسات شهرية وينظم مؤتمرا سنويا ويصدر نشرة كل ثلاثة أشهر، هسبريس (Hespéris)، كما كان يصدر عددا من المؤلفات.

على سبيل الختام

في نهاية تحليل هذه الورقة البحثية يمكن القول بأن الوظيفة الاجتماعية والإيديولوجية التي أنيطت بمدرسة الاحتلال كانت هي ترسيخ وتعميق التراتب الطبقي القائم، وذلك بإعادة إنتاج شروط إنتاجه باستمرار، مؤدية بذلك مجمل الوظائف الإيديولوجية التي أناطتها سياسة الاستعمار، كما أن السياسة التعليمية التي عملت فرنسا على نهجها بالمغرب إنما كانت تترجم بوضوح النزعة الاستعمارية الفرنكوفونية الفرنسية. ولقد شكلت أيضا المسألة التعليمية مجالا للصراع بين الاستعمار الفرنسي والمخزن اليوسفي الذي اقتنع بخطورة المعارك الثقافية، بشكل لا يقل درجة وأهمية عن المعارك العسكرية والسياسية. وفي هذا الإطار تم رفض كل المخططات التعليمية الفرنسية، كما تم إنشاء مدارس وطنية أهلية سميت بالمدارس الحرة.

20 - ثريا براءة: "المولى يوسف"، معلمة المغرب، من إنتاج الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، نشر مطابع سلا، ج 22، السنة 2005م، ص: 7687-7690.

21 - محمد خير فارس: تنظيم الحماية الفرنسية بالمغرب (1912-1939م)، دمشق، 1972م، ص: 324.

محطات مشرقة في تاريخ المغرب من خلال كتاب «شعر الجهاد في الأدب المغربي» لمؤرخ المملكة الدكتور عبد الحق المريني

د. أحمد إيشرخان
أستاذ باحث - الرباط

يروم هذا الموضوع التوقف عند مجموعة من المحطات المشرقة في تاريخ المغرب ووحدته وقوته وتلاحم العرش والشعب، من خلال كتاب مؤرخ المملكة الدكتور عبد الحق المريني الموسوم ب: «شعر الجهاد في الأدب المغربي»¹، فكثيرة هي الوقائع والأحداث والمعارك والانتصارات والملاحم التي تناولها المؤلف بالدراسة والتحليل من خلال الأدب المغربي عموماً، ومن خلال شعر الجهاد خصوصاً، فالكتاب زاخر بمعلومات هامة وأساسية تغني الحقل التاريخي الذي اعتمد على المصادر التاريخية المباشرة فقط، وهنا يمكن أن نتحدث عن دور النصوص الأدبية في التمهيد والتدقيق للوقائع والأحداث، التي سجل مجرياتها شعراء أفذاذ في إبداعاتهم الشعرية، وأرخوا لها بنوع من الفخر والاعتزاز في قصائد تحمل صور وقائع ناطقة تحاكي قلم المؤرخ الذي يشبه عدسة المصور، وعلى هذا الأساس فإن الكتاب يعتبر سجلاً حافلاً بالمعلومات الغميسة، والحقائق الدفينة، والمعطيات التاريخية النادرة، التي تهم حركة الجهاد من أجل الحفاظ على وحدة البلاد والدفاع عن حياضها لا في المغرب

1 - أصل هذا الكتاب رسالة لنيل دكتوراه الدولة في الأدب المغربي من جامعة سيدي محمد بن عبد الله بفاس (1989م)، وعنوانه الكامل: شعر الجهاد في الأدب المغربي من عهد الأمير يوسف بن تاشفين المرابطي حتى عهد السلطان المولى عبد الرحمان بن هشام العلوي، طبع الكتاب بأمر من صاحب الجلالة أمير المؤمنين الحسن الثاني، طيب الله تراه، منشورات وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية، مطبعة فضالة، المحمدية، 1383هـ/ 1996م، جزآن.

فحسب، وإنما في الأندلس والمغرب الكبير وإفريقيا جنوب الصحراء، فضلا عن ذكر ملامح مشرقة عن المعارك الشهيرة كالزلاقة والأرك ووادي المخازن، وبطولات تحرير الثغور.

وتبتغي هذه المساهمة إعطاء تصور شامل عن الدور العلمي الذي اضطلع به الأستاذ الباحث المحقق مؤرخ المملكة الدكتور عبد الحق المريني في مقاربته لهذه الوقائع، انطلاقا من تمثله للموروث من المصادر التاريخية من جهة، واعتماده المادة الشعرية كأساس لإضاءة الحقائق من جهة ثانية، وستتناول بالدراسة والتحليل أهم الأحداث التي وردت في ثنايا الكتاب، وسنركز على بعض الوقائع التي خلدها شعراء المرحلة بنوع من التفصيل.

إن كتاب الدكتور عبد الحق المريني يذكرنا بأن التاريخ مليء بالحسنات والسيئات، لكن حسنات تاريخ المغرب أكثر من سيئاته، فهو يؤرخ لجانب الفخر والاعتزاز لأمة جمعت المجد من أطرافه، وكتبت في التاريخ بطارفه وتالده. وإن قضية المفاهيم حاضرة في حدس المؤلف لذلك فالجهاد ليس صورة من الصور النمطية المتداولة اليوم باعتباره عملا عدوانيا، يستهدف الآخر في قعر داره، بل هو الدفاع عن النفس، وهو تضحية من أجل دين الله ووحدرة الوطن، وحب السلطان وطاعة أولي الأمر.

ولم ينس المؤلف التأريخ لدور المتصوفة في الدفاع عن المغرب، فالتصوف المغربي ليس هو لبس المرقعة، وحمل السبحة، والالتكاء على العكازة، وتداول الخرقة، بل هو «أدب السلوك» ومحبة الجهاد وتربية النفس وجهاد طرد المعتدي المحتل، وهو من أسس الطريقة الجزولية الشاذلية التي أرخ لمجموعة من أقطابها في ثنايا الكتاب، فقد تحدث عن متصوفة من أمثال: الإمام الهبطي والإمام ابن يجيش التازي. ولقي تاريخ المجاهدين حيزا كبيرا واهتماما وافرا من طرف مؤلف الكتاب حيث تحدث بنوع من الإسهاب والإعجاب عن المجاهد العياشي، وسجل المؤلف صفحات مشرقة عن وحدة المغرب واستقراره، من خلال الحفاظ على الأمن والقضاء على الثوار ومدعي المهدوية ومرتزعي الفتن.

- المجال التاريخي للكتاب

أول ما يلفت الانتباه هو الحقبة التاريخية التي تناولها الكتاب، إنها حقبة جد طويلة إذا ما قورنت مع ما جرت به العادة في المدرسة التاريخية التي تحدد زمنا تاريخيا قد لا يتجاوز في أكثر

الحالات عصر سلطان من السلاطين، أو قرنا من الزمن، وإذا كان المنهج الأنسب في التاريخ هو دراسة التاريخ المغربي حسب العصور، فإن المنهج الأنسب لدراسة الأدب المغربي هو منهج «الظواهر والقضايا» كما قرر المؤلف اعتمادا على المنهج الذي سار عليه من قبل الدكتور عباس الجراري في مؤلفاته، وخصوصا في كتابه «الأدب المغربي من خلال ظواهره وقضاياها»²، بل هناك عصور متداولة بين المؤرخين لا يمكن تجاوز حدودها حسب مجال التخصصات المتمثلة في القديم والوسيط والحديث والمعاصر والراهن، لكن موضوع الكتاب تناول فترة طويلة من منتصف القرن الخامس الهجري إلى منتصف القرن الثالث عشر الهجري، وبالضبط من عهد أمير المسلمين يوسف بن تاشفين إلى عهد أمير المؤمنين السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام، ومعنى ذلك هو القراءة بالتفصيل والتحليل تاريخ الدولة المرابطية والموحدية والمرينية والسعدية والعلوية، مع التمهيد لها بإطار تاريخي تناول تاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية عصر الأدارسة، وهو ما يدل على صعوبة الموضوع المرتبطة بغزارة مادته، ويبدو لي أن الدكتور عبد الحق المريني لم يستحضر بتخوف أو توجس ذلك السؤال الذي يطرحه عادة المؤرخون قبل الإقدام على تناول أي موضوع تاريخي مهما كان موضوعه بقولهم: «هل المادة هي التي تحدد الموضوع، أم الموضوع هو الذي يحدد المادة؟» بمعنى هل نضع عنوانا إشكاليا ثم نبحث عن مادته، أم نبحث عن مادة تاريخية ثم نضع لها عنوانا؟ فالكتاب يتناول تاريخ الدولة المغربية بين الامتداد والانكماش، بين الهجوم والدفاع، في المغرب الكبير والأندلس وبلاد السودان الغربي، مما يعني الإحاطة بتفاصيل العصر الوسيط والعصر الحديث، فقد تناول المؤلف بالدراسة والتحليل ما يربو عن ثمانية قرون ونصف من تاريخ المغرب المجيد، مما يشهد بموسوعيته وشجاعته في اقتحام تخصصين منفصلين في المدرسة التاريخية.

إن السؤال الذي يطرحه عادة المؤرخون قبل وضع إطار زمني لمشروع أطروحاتهم، هو لماذا البداية في تاريخ محدد والنهية في تاريخ معين؟ وهو ما طرحه المؤلف في أسباب بدايته بعهد يوسف بن تاشفين، ودواعي توقفه في عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام، فقد اعتمد في عوامل حصر موضوعه بين أمير وسلطان اعتمادا على الدوافع الموضوعية التالية:

- أولا: غنى هذه الفترة من تاريخ المغرب بالأحداث الداخلية والخارجية.

2- عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 21

- ثانيا: هي فترة مشرقة من تاريخ الجهاد المغربي.

- ثالثا: هي فترة زاهرة بالفتوحات الداخلية والخارجية.

- رابعا: هي فترة مليئة بالصور الرائعة للبطولات والشهامة والنجدة والقوة والتضحية.

أما دواعي التوقف في عهد السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام فبرره المؤلف بإدراكه أن فترة جديدة بدأت في تاريخ المغرب: «وكانت لها انعكاسات على الفكر والأدب»³ وإذا كانت عادة المؤرخين التركيز على الجانب العسكري وتغير موازين القوى وكشف ضعف الجيش المغربي إثر معركة وحرب، ونعني بهما معركة إيسلي وحرب تطوان، فإن المؤلف نبه إلى جانب مهم مرتبط بتراجع قوة الدولة المغربية، التي أصبحت موضوع مساومة وتربص بين الدول الإمبريالية، تتمثل في تراجع الأدب الذي هو رمز لقوة الدولة وضعفها، وهو ديوان حالتها السياسية والاجتماعية والنفسية، فالأدب مرآة الدولة تعكس عظمتها وضعفها، بل تعكس حتى الشوائب العالقة في وجهها، يقول المؤلف في جملة معبرة، تدل على رهافة الإحساس وقوة الإدراك: «ومن باب التبعية انتقل الأدب المغربي عامة والشعر خاصة، من مرحلة الغزارة وقوة التعبير وفخامة اللفظ إلى مرحلة التقاعس والخمول، والضعف والهزال، وانقلب شعر الجهاد إلى شعر الموعظة والحكمة وشعر التوسلات والتزهّد والاستغفار»⁴. إن هذا القول يدل على فهم قوي من طرف المؤلف لمرحلة ما بعد معركة إيسلي التي انكشف نقع غبارها في صيف عام 1844م عن انكسار نفوس المغاربة، ويمكن أن نجعله إطارا لفهم كثير من الظواهر الدينية والاجتماعية والأدبية، ابتداء من ظهور شعر التوسل إلى انتشار الطوائف الطرقية المعتمدة أساسا على البله والجذب وسقوط التكليف.

المجال الجغرافي للجهاد

إذا كانت أحداث التاريخ تجري في الجغرافيا، فإن المؤلف عمد إلى تنبيهنا في مقدمة كتابه إلى أنه تحدث عن مراكز الجهاد عموما، لكنه لم يتناول بالتأريخ إلا المراكز التي كانت ميدانا لعمليات الجهاد ومنطلقا لها، لكن مجال البحث التاريخي في الكتاب متسع في رقعة الجغرافية فهو يتناول خريطة

3 - عبد الحق الميرني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 19.

4 - عبد الحق الميرني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 19.

المغرب في حدوده السياسية التاريخية، وهي إمبراطورية واسعة تمتد حدودها من الأندلس شمالاً إلى نهر السنغال جنوباً، ومن البحر المحيط غرباً إلى برقة شرقاً، ويبرز هذا المجال الجغرافي بتفاصيله في الفصل الثاني من الباب الأول من الكتاب، وهو في شعر الفتوحات الخارجية المؤرخة لما وقع من معارك انتصر فيها المغاربة لتوحيد الغرب الإسلامي الذي يضم كلاً من المغرب الأقصى، والمغرب الأوسط وإفريقية، والأندلس وبلاد السودان الغربي⁵.

وإلى هنا نبدأ حديثنا في هذا الموضوع بالتمهيد الذي وضعه المؤلف بين يدي أطروحته كمدخل أساسي لا بد منه للولوج إلى العصر المرابطي وذلك بالتاريخ للإمارات ولدولة الأدارسة ولإمارة برغواطة، وهنا لا بد من التوقف عند بعض الإفادات الغميسة التي ذكرها المؤلف:

أولاً: إفادات غميسة في تاريخ برغواطة

هناك كثير من المزامع بل هناك كثير من الأراجيف حول ملابسات تاريخ برغواطة عموماً، وفي الجانب الديني العقدي خصوصاً، فقد ارتفعت أصوات هنا وهناك في محاولات لتبرئة تاريخ برغواطة من ادعاء النبوة على يد نبيهم يونس بن صالح بن طريف، فالبعض حاول ومازال يحاول أن ينفي تاريخ ادعاء النبوة ليدرجها في إطار الصراع العربي الأمازيغي، لكن المؤلف يقرر بحجج دامغة أن يونس هذا ادعى فعلاً النبوة وانتحل لنفسه ديناً جديداً، وقتل كثيراً من الأمازيغ ليطيعوه ويتبعوا دينه، والجميل فيما فعله المؤلف هو استشهاده بقصيدة لشاعر معاصر للأحداث وهو الشاعر سعيد بن شهيد المصمودي، وتصف القصيدة - وهي طويلة - وقعة وادي بهت التي اندحر فيها البرغواطيون ونبيهم المدعو «صالح المومنين» ونكتشف من خلال أبيات القصيدة أنه كان يدعى من طرف قومه بـ «النبي أبو عفير»، كما يظهر أيضاً من خلال أبياتها أن صالح شارك في المعركة هو وبنو أبيه لكنه ولى الأدبار، بل لقد وصفهم الشاعر بالردة، واتباعهم لمذهب الخوارج الصفرية، لأن صالح بن طريف البرغواطي كان من بين قواد الثائر ميسرة المدغري معتنق المذهب الخارجي الصفري، وهذه تفاصيل قلما نجدها في الكتابات المتداولة حول تاريخ برغواطة وحروبها. فغالب النصوص المتداولة بين المؤرخين منقولة في تاريخ هذه الإمارة عن البكري وابن حوقل. لكن

5 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 22.

القصيدة التي اعتمد فيها المؤلف على «البيان المغرب» تضيء جوانب مهمة من تاريخ إمارة برغواطة⁶.

ثانيا: سنية الدولة الإدريسية ومالكية مذهبها

هل كان إدريس الأول شيعيا؟ سؤال يطرح مرة بعد مرة بين المؤرخين والمحبين لمعرفة التاريخ، وقد تجاوز إطاره الأكاديمي، لي طرح السؤال في بعض الصحف المغربية، بل لقد طلعت علينا صحيفة مؤخرا بنفس العنوان على صفحاتها بالبنط العريض، ولعل المؤلف بخبرته وحده استبق السؤال دون أن يطرحه، فقرر منذ البداية في براعة استهلال عند نهاية حديثه عن انتهاء عصر الولاة بالمغرب عام 172هـ، حيث كتب عنوانا دالا ربط فيه بين الدولة الإدريسية وسنية الدولة المغربية، بما يلي: «الدولة الإدريسية أول دولة إسلامية سنية بالمغرب الأقصى». فيكون العنوان حاملا لدالتين، أولا: أن المغرب لم يعرف مفهوم الدولة قبل دولة الأدارسة، ثانيا: أن دولة الأدارسة دولة سنية، ولتوضيح دلالة العنوان الثانية وضع المؤلف هامشا مطولا في حوالي ثلاثين سطرا بخط دقيق، ليقتنعنا بوجهة نظره وحسن دلالاته، معتمدا على تسعة من المصادر والمراجع، مقررًا أن دولة الأدارسة سنية ولم تكن قط شيعية، رغم أن مؤسسها من أهل البيت، والمفاجأة هي أنها لم تكن فقط سنية بل هي سنية مالكية، وبذلك يكون المذهب المالكي من مقومات الدولة المغربية منذ تأسيسها، فيكون بذلك حسب وجهة نظري الرد على من قال بأن مذهب مالك تبناه المغاربة في عصر متأخر، أخذا أو تقليدا لأهل عدوة الأندلس. فالمغاربة كانوا شغوفين بمذهب إمام المدينة سباقين إلى تبني الفقه المالكي لتوافقه مع طباعهم، وقد توصلت آخر الأبحاث إلى أن «إمارة النكور» التي نصب فيها الحميريون العبد الصالح أميرا عليها قد اتبع أحفاده المذهب السني المالكي. ويقرر المؤلف أن دولة الأدارسة عمرت فوق القرنين من الزمن، حيث قامت في النصف الثاني من القرن الثاني الهجري ولم تنقرض إلا في أواخر القرن الرابع الهجري، وهي مدة طويلة وحاسمة في تنظيم شؤون الدولة المغربية وفي صياغة مذهبها، وانتقال جل أهلها من دين النصرانية واليهودية إلى الإسلام وتمكنهم من اللسان العربي، والحد من الصراع بين المذاهب بانتصار المذهب السني على المذهبين الشيعي والخارجي، وظهور المذهب المالكي على المذهب الحنفي. وهذه المحطات المضيئة من تاريخ الدولة

6 - عبد الحق الميرني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 72.

المغربية تشعر المؤرخ بضرورة الاهتمام بالتفاصيل خصوصا في الجانب العقدي والفقهية من تاريخ الأدارسة بدل التوقف عند محطات سياسية معينة في تاريخ محمد جرت العادة أن تقتصر على إدريس الأول، وابنه إدريس الثاني، وتقسيم المغرب بين أبنائه باقتراح من جدتهم كنزلة الأوربية.

- الدولة المرابطية:

إذا كان الأدارسة قد اعتمدوا على النسب الشريف وعصبية قبيلة أوربة وما جاورها من قبائل مضمودة، حسب ما يستنتج من صفحات كتاب «شعر الجهاد»، فإن الدولة المرابطية قامت حسب الدكتور عبد الحق الميرني اعتمادا: «على التقشف والجهاد والتشبث بمبادئ المذهب المالكي السني»⁷ وهو عكس ما حاول إقناعنا به أحد الباحثين في إعداد أطروحته الجامعية حول الدولة المرابطية اعتمادا على دراسة اقتصادية، تقول بقيامهم اعتمادا على سيطرتهم على طرق التجارة بين بلاد السودان والمغرب والأندلس، فقد أمضى هذا الباحث حوالي ثلاثين سنة لإثبات نظريته المبنية على قيام الدولة المرابطية على عوامل اقتصادية محضة دون بقية الأسباب، لكن محاولاته باءت بالفشل، ولم يستطع تقديم أطروحته للمناقشة بسبب ضعف أدلتها⁸، في حين نجح الدكتور عبد الحق الميرني في إقناع القارئ بمعطيات موضوعية على أن المرابطين حركة إصلاحية تزعمها الرجل المتدين والسياسي المحنك الفقيه عبد الله بن ياسين، وقامت على مبادئ الدين الإسلامي الحنيف. فهي أول دولة من دول الجهاد المغربية، يتضح ذلك أيضا من خلال متابعة القراءة في فصول حياة رجال الدولة المجاهدين المرابطين، وقد أثنى الدكتور الميرني على يوسف بن تاشفين وجعله من بين «أعظم الرجال الذين أنجبهم المغرب» ويلخص حياته الخاصة في التواضع والتقشف في الملبس والمأكل، لكنه صاحب حنكة سياسية وقوة عسكرية، ومن أجل أعماله توحيد المغرب والقضاء على الإمارات التي وزعت المغرب بين زعامات محلية متنازعة أساسها العصبية القبلية، وهم بنو يفرن ومغراوة وزناتة وبرغواطة. ويظهر أن المؤلف قد أعجب بشجاعة المرابطين وبشدة بأسهم في الحروب، وبمحطاتهم التاريخية المشرقة التي خلدوها في تاريخ المغرب، من خلال إقامتهم لدولة تعتمد

7 - عبد الحق الميرني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 91.

8 - بينما ذكر د. عز الدين أحمد موسى وهو متخصص في التاريخ الاقتصادي، أن الاقتصاد ليس هو محرك التاريخ ولكنه أحد العوامل الفاعلة فيه، انظر مقدمة كتابه النشاط الاقتصادي في المغرب الإسلامي خلال القرن السادس الهجري، دار الشروق بيروت 1403هـ، 1983م، ص. 7.

المذهب المالكي، وقد جعلت من : « الإسلام المبسط الواضح، أساسا لها »، ولقد أورد المؤلف قصائد لخمسة شعراء من الأندلس للثناء على المرابطين وعلى قوتهم وحسن صنيعهم في الجهاد بالأندلس، وهم:

- الشاعر الأديب عبد الجبار بن حمديس الصقلي.

- الشاعر الأعمى التطلي.

- المؤرخ الشاعر يحيى بن محمد بن يوسف الصيرفي الغرناطي.

- الشاعر أبو إسحاق ابن خفاجة الأندلسي

- الشاعر أبو الحسن ابن الزقاق البلنسي⁹.

إن المقطعات الشعرية التي أوردها المؤلف تشعّر القارئ بأن هؤلاء الشعراء كانوا أكثر صدقا وصفاء وأن شعرهم نابع من أعماق قلوبهم، وليس مجرد صناعة أدبية يبتغون بها العطاء في ما يصطلح عليه بشعر التكسب، وحسب علمي المتواضع فإن أمراء الدولة المرابطية الأوائل لم يكونوا يصطنعون الشعراء ولا يستجلبون المدح، ولا يعطون الشعراء هبات سيف الدولة الحمداني ولا عطاء كافور الإخشيدي، وفي أبياتهم منتهى الكفاية وحسن الدلالة للرد على بعض الأدباء المعاصرين الذين هاجموا يوسف بن تاشفين مناصرة لشاعر الحب والعشق والغرام، والسيف والرماح والنصال، أمير قرطبة المعتمد بن عباد، وفي مقدمتهم أمير الشعراء أحمد شوقي الذي هجا يوسف بن تاشفين بقصيدة تصويرية طويلة، ورد عليه شاعر الحمراء محمد بن إبراهيم بقصيدة أكثر روعة وأبداع تصويرا. ومازلنا نسمع ونشاهد جمعيات ثقافية تهاجم يوسف وتناصر المعتمد في مهرجانات ثقافية، لكن كتاب الدكتور المريني يحفل بمحطات مشرقة من تاريخ أمير المسلمين يوسف بن تاشفين.

لا أريد أن أنهي الحديث عن هذه اللوحات المشرقة من تاريخ الدولة المرابطية دون أن أشير إلى إفادة طريفة وقفت عليها في قصيدة أوردها المؤلف وهي للمؤرخ الشاعر يحيى بن محمد الصيرفي صاحب كتاب: «الأنوار الجلية، في أخبار الدولة المرابطية» وهو كتاب مفقود حسب علمي، فمن

9 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. صص. 93. 99.

خلال الأبيات يظهر أن أهل الأندلس، كان يصعب عليهم التمييز بين المرابطين بسبب اللثام الذي يضعونه على وجوههم، وقد أثارت مشكلة تلثم المرابطين كثيرا من التأويلات فالبعض ذهب إلى تلثمهم بسبب عوامل طبيعية، والبعض ذكر أن تلثمهم كان لدواعي حربية، لكن الشاعر لا يخوض في هذه التأويلات بل هو فقط يسأل عن الملك بين الملثمين، فقال¹⁰:

يأيها المالأ الذي يتقنع من منكم المملك الأروع
ومن الذي غدر العدو به دجى فانقض كل وهو لا يتزعزع

ثم يجيب الشاعر نفسه بنفسه في آخر القصيدة مستسلما:

ما أنتم إلا أسود خفية كل لكل عظيمه مستطلع

- الدولة الموحدية:

من النقاط الملفتة في الكتاب الدالة على قوة الدولة المغربية وإشراق أيام محطاتها التاريخية بشمس متجددة، هو قيام الدولة الموحدية وهي الدولة الثانية من دول الجهاد المغربية، هذه الدولة لم تقم بسبب قوة دعوة المهدي القائمة على الحجية والمقارعة والمناظرة والإقناع، بل قامت نتيجة ضعف الدولة المرابطية، وليس بسبب الفساد والركون إلى الدعة التي يستسلم لها أمراء الجيل الثالث حسب النظرية الخلدونية في تقهقر الدول وسقوطها، لكن المؤلف الدكتور عبد الحق المريني يقرر بجمل واضحة أن سقوط دولة المرابطين كان: «من جراء ما حصل لجيوشها من إرهاق في الدفاع عن الأندلس»¹¹ وبذلك يزول اللبس والاستغراب الذي يعبر عنه عادة المؤرخون عند حديثهم عن انهيار الدولة المرابطية وهي في أوجها.

ورغم كون المؤلف يشني على دولة المرابطين وعلى حسن تدبيرها لمرحلة حاسمة من تاريخ الدولة المغربية، بتوحيد قبائلها، وتوسيع حدودها، وجهادها في الأندلس، فإنه لم يتخذ موقفا من المهدي بن تومرت الذي ادعى المهدوية، ووصف المرابطين بالمجسمة الذين ملأوا الدنيا بنجس الشرك والظلم، فجاء المهدي ليملاها عدلا بعدما ملئت جورا، لا يتضح كل ما قلناه من خلال كتب

10 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 97.

11 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 100.

التاريخ فقط، بل من خلال أبيات شعرية أنشدها المهدي ابن تومرت نفسه، واستخرجها المؤلف من خلال كتاب «خريدة القصر» للعماد الأصفهاني، جاء فيها¹²:

ذرني وأشياء في نفسي مغبأة لألبسن لها درعا وجلباباً
والله لو ظفرت كفي ببغيتها ما كنت عن ضرب أعناق الوري أبي
حتى أظهر هذا الدين من نجس وأوجب الحق للسادات إيجاباً
وأملأ الأرض عدلاً بعدما ملئت جوراً وأفتح للخير أبواباً

واعتماداً على ما رواه ابن خلكان في «وفيات الأعيان»، يستهل المؤلف حديثه عن المهدي ابن تومرت بكونه رجل مثقف وسياسي محنك، وبفهم رجل الدولة يحسم الدكتور عبد الحق المريني الخلاف الذي وقع بين المؤرخين في قضية تساؤلات حول دعوة ابن تومرت القائمة على قاعدة: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر»: فهل هي دعوة عقديّة؟ أم اجتماعية؟ أم فكرية؟ أم سياسية؟

يقول المؤلف جواباً على تساؤلات المؤرخين: «الحقيقة أنها كانت كل ذلك»¹³، وقد برهن على جوابه من خلال التفصيل لكثير من المعطيات، أخصها فيما يلي:

- هي دعوة عقديّة من خلال تشجيع الاجتهاد الفقهي.
- هي دعوة اجتماعية من خلال السعي لإصلاح المجتمع المغربي.
- هي دعوة فكرية من خلال محاربة البدع والشعوذة وأصحاب الحيل والنحل.
- هي دعوة سياسية من خلال إقامة دولة بصورة جديدة مبنية على إقامة إمبراطورية في شمال إفريقيا والأندلس، لها عز ووصولة تزاخم بها الدولة العباسية.

وملخص الأمر وبنظرة المثقف الخبير: فدعوة المهدي التي انطلقت من تينمل من حيث الشكل دينية روحية، ومن حيث الجوهر هي دعوة سياسية، أرسى دعائمها خليفته عبد المومن الذي أثنى عليه المؤلف بقوله: «وهو من أهل السياسة والحكمة والعلم»¹⁴ وقد تمكن من إنجاز أمرين هامين:

12 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 102.

13 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 101.

14 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 104.

أولهما: القضاء على فلول المرابطين، وثانيهما: اجتثاث البرغواطيين بعد ظهور جرثومتهم فوق السطح من جديد.

إن المحطات المشرقة للدولة الموحدية حسب ما يستفاد من كتاب الدكتور عبد الحق المريني تتمثل في الجهاد الخارجي بالدفاع عن الأندلس، وفي الجهاد الداخلي بالحفاظ على وحدة الدولة والقضاء على الثوار الذين يكذبون الاستقرار مرة بعد مرة، وهذا جرد لأهم الثورات التي تمكن الموحدون من حسم دائها، وتحدث المؤلف عن مجريات أحداثها بنوع من التفصيل:

- الثائر مَرْزَدَغ الصنهاجي. الذي استولى على تازة.

- الثائر سبع بن منعاف الذي قام بقصر كتامة واستولى على جبال غمارة.

- ثورة المرتدين في جبل تاسررت.

- الثائر الإبلis الفتان المدعو «الجزيري» ثار بعاصمة الموحدين مراكش مستغلا غياب يعقوب المنصور بإشبيلية.

ومن الشعراء الذين أثنوا على دولة الموحدين، واستدعى المؤلف قصائدهم للدلالة على ازدهار الدولة الموحدية وإشراق أيامها، نذكر:

- الشاعر أبو محمد ابن المالقي. وهو صاحب قصيدة تتضمن وصايا في أدب السياسة.

- الشاعر الكاتب القاضي عمر بن عبد الله السلمي. ذكره المؤلف في الهامش مع بعض أبياته.

- الشاعر أبو الوليد إسماعيل بن عمر الشبلي.

- الشيخ المسن أبو بكر بن المخل الشبلي.

- الشاعر أبو عمر أحمد بن حربون. وسماه المؤلف في مناسبة أخرى شاعر الموحدين.

- الشاعر الشهير أبو العباس أحمد بن عبد السلام الجراوي التادلي. وهو لسان الدولة الموحدية والمعبر عن مواقفها، وقد قال له عبد المومن يوما: «يا أبا العباس إنا نباهي بك أهل الأندلس».

وكل هؤلاء الشعراء اعتبرهم المؤلف من المشاركين في حركة الجهاد، من خلال هجاء الثوار والتقليل من شأنهم، وتشجيع الموحدين والرفع من شأنهم، وقد سجلوا بقصائدهم صفحات مشرقة

من تاريخ الدولة المغربية في الدفاع عن الأندلس، وفي الحفاظ على وحدة الأمة، وقد أشار المؤلف إلى العقيدة الأشعرية التي ظهرت بالمغرب على يد المهدي بن تومرت، ومعلوم أن مذهب مالك وعقيدة الأشعري وسلوك الجنيد ستشكل مجتمعة في مرحلة لاحقة ركائز الدولة المغربية ومكوناتها الأساسية.

- الدولة المرينية.

بمطالعتنا هذا الفصل من كتاب شعر الجهاد نفهم من خلال ما حبره المؤلف أن مفهوم الدولة المغربية عرف تطوراً كبيراً، فتأسس الدول الذي كان يبنى على عوامل دينية ومذهبية وعقدية ولا يكون الهدف منه إلا ابتغاء الأجر وابتغاء الآخرة، وبث الدين الصحيح، سيُبنى في هذه الدولة على عوامل سياسية بالأساس، وقد أقر المؤلف ذلك بوضوح عندما اعتمد على بيت شعر لشاعر الدولة المرينية لقبها فيه بدولة الدين والدنيا، ولعل هذا ما جعل كثيراً من الباحثين يرجعون مظاهر حضارة الدولة المغربية في أسمى تجلياتها إلى العصر المريني، ويمكن أن نستأنس هنا بما كتبه الفقيه المنوني في كتابه القيم «ورقات عن حضارة المرينيين». لقد عمل المرينيون بناة المدارس العلمية الشهيرة، على لم شتات الدولة الموحدية المنهارة بسبب حروب الاستنزاف التي خاضوها في المغرب والأندلس، وكانت موقعة العقاب من آخر الأسباب في انكماش دولتهم وغروب شمس أيامهم، فقام المرينيون بتجديد الدولة المغربية وتشبيب هياكلها، بنذ دعوة الموحدين والعودة إلى المذهب المالكي وتقويته كمذهب رسمي للدولة، بواسطة المدارس والزوايا، وفي الجانب الجهادي الحربي خاضوا معارك فاصلة سجل مجرياتها بكل فخر واعتزاز شعراء الدولة المرينية اعتمدها المؤلف بالتحليل والتركيب لإعادة بناء صور مشرقة من تاريخ هذه الدولة المجيدة، ومن هؤلاء الشعراء نذكر حسب ما ورد في ثنايا كتاب «شعر الجهاد»:

- الشاعر الناظم أبو فارس عبد العزيز المزروزي المكناسي صاحب المنظومة الرجزية الشهيرة: «نظم السلوك في الأنبياء والخلفاء والملوك» وقد ترجم له المؤلف ترجمة موسعة في هامش الصفحة وسماه: «شاعر الدولة المرينية بدون منازع»¹⁵.

15- عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 119.

- الأديب الشاعر الشهير مالك بن المرحل السبتي المصمودي، قال المؤلف في ترجمته: «وهو خير من يمثل الأدب المغربي في القرن السابع الهجري»¹⁶.

- الشاعر أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان، شاعر أبي عنان ومادح دولته.

- الشاعر أحمد بن يحيى بن أبي حجلة التلمساني نزيل القاهرة. ذكر له أبياتاً في مدح أبي عنان وقد أثنى في قصائده على الأسطول المريني وقوته. وقد اعتمد المؤلف على مخطوط نفيس قليل التداول بين المؤرخين والباحثين بعنوان: «منطق الطير» وهو من نفائس مخطوطات الخزانة الحسنية بالرباط.

- الكاتب الشهير لسان الدين ابن الخطيب الذي أثنى على أبي عنان وعلى جيوشه، وهنا يستخرج المؤلف إفادة غميسة من قصيدة لابن الخطيب يظهر من خلالها استعمال الجيش المريني للأسلحة النارية في عهد أبي عنان في معركتهم مع بني زيان ملوك تلمسان.

- الشاعر أبو القاسم بن رضوان المالقي، كاتب الدولة في عهد أبي عنان، الذي أشاد بأساطيل الدولة المرينية. في قصائده.

- الفقيه الشاعر محمد بن يوسف بن أبي يعقوب الشبوكي الفاسي، قال عنه المؤلف: «كان فارس القريض، وحامل لوائه الطويل والعريض»¹⁷.

- الأديب الشاعر الشهير ابن زمرك الأندلسي، وهو أبو عبد الله محمد بن يوسف الصريحي الغرناطي، وقد اشتغل كاتباً للسلطان أبي سالم المريني، حسب ما أفادنا به المؤلف في ترجمته بهامش الصفحة¹⁸.

إن المحطات المشرقة للدولة المغربية في العهد المريني لا ينبئنا عنها البر فقط، بل ينبئنا عنها البحر أيضاً كما سجل ذلك الشاعر أبو العباس أحمد بن يحيى بن عبد المنان في قصيدته الرائعة، فالأسطول المريني من المحطات التاريخية التي أشاد بها المؤلف، ويجب علينا التوقف عندها ملياً

16 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 120.

17 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 133.

18 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 133.

بالدراسة والتحليل، لنجيب عن سؤال تراجع المغرب البحري في الحقب اللاحقة من مراحل التاريخ، بتغير موازين القوى بين الشمال والجنوب، بداية من العصر السليماني. فقد جاهدت الدولة المرينية في الأندلس، ولكنها صارعت أيضا في داخل البلاد كثلة من الثائرين توقف المؤلف عند أهمهم بمزيد من التفصيل اعتمادا على شعراء المرحلة، ويكفي أن نذكر هنا مجموعة من الثوار الذين قطع دابرهم واستأصلت شأفتهم، اعتمادا على ما حبره المؤلف:

- ثورة الإشبانيين بسلا بمساعدة يعقوب بن عبد الله المريني وهو ابن أخ يعقوب بن عبد الحق المريني¹⁹.

- حاكم تلمسان الأمير يغمراسن من بني عبد الواد، وكانت مجاهدتهم من أعظم الجهاد كما قرر المؤلف اعتمادا على رجزية الشاعر عبد العزيز الملزوزي. بل إن منازلهم سابقة عن منازل النصاري في أرض قرطبة. خصوصا لما رفضوا الصلح الذي عرضه عليهم أمير المسلمين قبل عبوره إلى الأندلس. وقد نال هذا المغامر الشقي ما يستحقه نتيجة تنطعه ورفضه الصلح لصالح المسلمين، في مجريات محطات تتبع تفاصيل أحداثها بشغف كبير المؤلف ليصف الحروب التي خاضها ليوث الحرب أسد العرين من دولة بني مرين في معركة بوادي إيسلي²⁰.

- مجموعة من الثوار قاموا بسوس ومعهم بقايا من فلول الموحدين، تم القضاء عليهم بقيادة أبي مالك المريني²¹.

- الثائر أبو مهدي عيسى بن الحسين بن أبي الطلاق، وهو وزير أبي عنان وعامله على جبل طارق، تم القبض عليه وسيق إلى سبتة حيث تم قتله بالرمح.

- الثائر عامر بن محمد الهنتاتي، وهو: « من كبار رجال الدولة المرينية وصاحب جبال هنتاتة من حوز مراكش، الذي شق عصا الطاعة في عهد السلطانين أبي الحسن وأبي عنان »²².

19 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 117.

20 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 125.

21 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 120.

22 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 133.

إن كثرة الثوار والفتانين الذين قاموا في كل مراحل الدولة المرينية لم يثن سلاطينها عن تسجيل صفحات خالدة في تاريخ الدولة المغربية، وقد أشار إليها المؤلف في ثنايا الكتاب، ومنها بناء المدارس التي اعتبرت قاطرة في إنشاء المدرسة المغربية في الفقه والتصوف وعلوم الدراية والرواية مما شكل بروز ملامح الخصوصية المغربية، فعند ترجمة المؤلف للسلطان أبي الحسن المريني وهو واسطة عقد هذه الدولة كما سجل ذلك ابن مرزوق الخطيب في كتابه القيم «المسند الصحيح الحسن» حيث سجل من أعماله الخالدة: «فتح تلمسان وانتزاعها من بني زيان، ودخوله إلى تونس واسترجاعه لجبل طارق من القشتاليين، وخوض معركة طريف البحرية الحاسمة»، وبالإضافة إلى ذلك فلم يتلأأ بنو مرين عن تقديم الدعم للملوك بني الأحمر بالأندلس. فكتاب شعر الجهاد يمكننا من الوقوف على كثير من النشاط السياسي والفكري والعمراني والاجتماعي الذي قاده أمراء الدولة المرينية وسجله بمزيد من الفخر والاعتزاز شعراؤها الذين اعتمد شعرهم الدكتور عبد الحق المريني.

- الدولة السعدية

قيام دولة السعديين حسب ما نستنتجه من كتاب «شعر الجهاد» كان لأسباب ضرورية وليس لأسباب عقدية أو فكرية أو سياسية ذكرناها سابقا، بل هناك واجبات وقعت على عاتق المغاربة، وكان المغرب في أشد الحاجة إليها يمكن إجمالها اعتمادا على ما ساقه المؤلف في ما يلي:

أولاً: القيام بالجهاد وتنظيم حركته وقيادته.

ثانياً: حماية الحدود.

ثالثاً: تحرير الثغور.

رابعاً: إنقاذ البلاد من التفكك والانحلال. وهو عمل من أوجب الواجبات حسب تعبير المؤلف.

لهذه الأسباب رجع الأستاذ المريني قيام الدولة السعدية التي أثلت تاريخ المغرب بصفحات تاريخية مجيدة دشنها محمد الشيخ السعدي الذي وحد المغرب واسترجع جهاته التي استولى عليها الثوار.

لقد اعتمد المؤلف على شعر شعراء المرحلة للوقوف عند المحطات المشرقة لهذه الدولة المجاهدة التي هزمت الثوار وحررت الثغور، وأورد نماذج من قصائدهم واستخرج منها تاريخاً مفصلاً لهذه الدولة وقد وردت أشعارهم وتراجهم متفرقة في الكتاب وها نحن نجمعهم حسب ترتيبهم:

- الشاعر المفوه الفقيه القاضي أبو عبد الله محمد بن علي الهوزالي، وسماه المؤلف شاعر المنصور الذهبي الرسمي²³. وفي قصائده وصف للحروب التي خاضها محمد الشيخ ضد أعداء الدولة الذين قاموا بالمغرب. وفيها وصف جلي لاحتلال الأجنبي للشواطئ المغربية، وقد اعتمد المؤلف في أشعاره على مجموعة من المصادر ومن ضمنها مخطوط «سوس العالمة» الذي كانت نسخة منه في ملكية الفقيه العلامة محمد بن عبد الهادي المنوني.

- الشاعر سعيد الحامدي، وله قصيدة رائعة في وصف خصال محمد الشيخ السعدي ومراحل نضاله.

- الشاعر سعيد بن علي الجزولي، تحدث عنه المؤلف اعتماداً على أشعاره في وصف الجيش السعدي والحروب التي خاضها لتمزيق قوات الاحتلال للثغور، ومن ضمنها معركة بموقع يسمى «تكريط»، ذكره الشاعر في أبياته وأشار إلى استعمال أسلحة النار التي ترمي بلهب الشرر، فقد تلقى الغزاة النار بدل السكر، وهي إشارة لطيفة إلى السكر الذي كانوا يستوردونه من جهة سوس قبل قيام السعديين.

- الشاعر الأديب المؤرخ الشهير أبو فارس عبد العزيز الفشتالي، ترجم له المؤلف ترجمة وافية، وقال فيه: «به يفتخر أهل المغرب على أهل المشرق»، وقد قال فيه المنصور الذهبي: «إن الفشتالي نفتخر به على ملوك الأرض ونباري به لسان الدين ابن الخطيب» وقد سجل مآثر الدولة السعدية في كتابه الشهير «مناهل الصفا في أخبار موالينا الشرفا» في عدة أسفار، عثر لحد الآن على سفر واحد منها، وقيل بل هو مجرد ملخص لأحد الأسفار، قام بتحقيقه العلامة عبد الله كنون، ثم الدكتور عبد الكريم كريم. إن أشعار الفشتالي تؤرخ لصفحات مشرقة من تاريخ الدولة السعدية، خصوصاً في

23 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 136.

عهد المنصور حيث استنبط منها المؤلف مجموعة من الأحداث والوقائع، منها استيلاء القوات المغربية على إقليم توات وتكورارين، وفتح بلاد السودان، وهناك دعوة صريحة في أشعار الفشتالي ترجو من المنصور التوجه إلى شرق البلاد حيث الأتراك، بل إلى المشرق الذي يتطلع إلى حلول آل البيت، وقد نبه الدكتور عبد الحق المريني إلى أبيات أنشدتها الهوزالي يشتم منها رائحة النزعة الشيعية نافيا عنها ذلك، ومعتبرا ذلك مجرد حب لآل البيت والتعلق بهم.

- الشاعر الأديب الكاتب بديوان المنصور الحسن بن أحمد المسفوي، وقد سجلت مجمل أشعاره الإشادة بانضمام بلاد السودان إلى بلاد المغرب، واتساع الدولة وامتداد نفوذها بل في أشعاره تشويق إلى ضم بلاد المشرق إلى المغرب تحت الراية المغربية، وقد نبه المؤلف إلى أن هذه الدعوة كانت أيضا عند شعراء الدولتين الموحدية والمرينية.

- الشاعر الوزير أبو الحسن علي بن منصور الشياظمي، وهو وزير السيف والقلم، كان قائدا للجيش المنصوري، وقد سجل في أشعاره قوة بأس المنصور وشدة ثباته في الحروب، ووصف المعركة الحاسمة التي قادها المنصور ضد المتوكل بن الغالب السعدي في سوس بمضيق «أسطاس»، وقد شاركت فيها فرقة مرتزقة من الأتراك إلى جانب المتوكل بينما استعان المنصور بفرقة من زواوة وهم ألد الخصام للترك²⁴.

لقد خصص المؤلف حوالي عشرين صفحة لتسجيل منجزات الدولة السعدية، لكننا نلاحظ التطويل المشوق في منجزات المنصور الذهبي، باعتباره واسطة عقد هذه الدولة وحامل راية إنجازاتها الحضارية والفكرية، وقد عبر عن هذا الإعجاب كما تعلمون السلطان سيدي محمد بن عبد الله نفسه. فقد تمكن المنصور من هزم الثوار الذين كانت تساندهم إسبانيا وفي مقدمتهم الثائر الشهير ابن قرقوش، وقد صدحت قصائدهم بالدعوة إلى استرجاع الأندلس، كما سجل المؤلف بمزيد من التفصيل في الفصل الخاص بالتحريض على الجهاد من كتابه. يقول المؤلف: «إن المنصور السعدي بشهادة شعراء دولته... قاوم أحزاب الشرك وطواغيت الكفر، وصبر لهول الثوار وأصحاب الفتن، وثبت محتسبا لصولات البرتغال والأتراك وصدماهم المتوالية، ووحد بين شمال البلاد وأقصى

24- عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 148.

جنوبها، وجاهد جهاد الصابرين الصالحين، ورفع راية الإسلام خفاقة، وأعاد للمغرب هيئته وسلطانه»²⁵.

- الدولة العلوية الشريفة:

من أجل أن يبرز المؤلف قوة الدولة العلوية الشريفة وما قدمته من خدمات جليلة في صفحات مشرقة من تاريخ الدولة المغربية، يستهل حديثه عنها بوضعنا في الإطار التاريخي الذي ظهرت فيه في محطات تاريخية شاهدة على قوة التمزق والانحلال الذي وصلت له الدولة المغربية بعد وفاة المنصور، فقد تصارع الأبناء على الحكم، وهم: زيدان وأبو فارس ومحمد الشيخ والمأمون، وتم الاستقواء بالأجنبي مقابل تسليم العرائش: و«فوق كل كدية صاح ديك» على حد تعبير الناصري، وظهرت على مسرح الأحداث مجموعة من الزعامات المحلية التي هددت المغرب في وحدته واستقراره، فصار شذر مذر، فتطرق المؤلف إلى أهم الزعامات المحلية التي شهدتها الفترة، بكامل ما تحمله من مدلول كلمة «الفترة» في اللغة من الضعف والانكسار، وفي التاريخ من المدة الفاصلة بين زمنين، وأقصاها هو غياب السلطان وانتشار الثوار، واستبداد كل زعيم بمنطقة يبسط فيها نفوذه، بتجبر واستعلاء، ومحاربة من جاوره من الزعماء والأمراء، «فقد قام الثوار من كل صوب يطالبون بالعرش والسلطان»²⁶.

أجلهم المؤلف فيما يلي:

- ثورة فاس بقيادة أحمد بن إدريس العمراني، « مناديا بالجهاد لإغاثة وإنصاف مسلمي العرائش »²⁷.

- ثورة ابن أبي محلي، وقد ادعى المهدوية، وتمكن من هزم زيدان ودخول العاصمة السعدية مراکش.

25 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. صص. 154، 155.

26 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 155.

27 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 156.

- الدلائيون في جبال فازاز وقد استولوا على حوض ملوية ثم سلا والرباط ثم فاس، وتم اغتيال المجاهد العياشي. وهنا ينبه المؤلف إلى أن حركة الدلائين بدأت دينية ثم اتخذت اتجاهها سياسياً. وقد أورد أبياتاً من أشعار شاعر الزاوية الدلائية أبو العباس أحمد الدغوغي²⁸.

- الثائر علي بن موسى السملالي، وقد تمكن من السيطرة على سوس وبلاد الصحراء قال عنه المؤلف: «وكان غشوما ظلوما» دخل في مواجهات دامية مع الدلائين ثم مع الأشراف العلويين.

إن تصور هذه الأحداث وتتبع مراحلها، برسم خريطة للمغرب الذي انقسم بين مملكة فاس ومملكة مراكش بالإضافة إلى إمارات مستقلة وثغور محتلة يبرز ولا شك الجهاد الصادق الذي قاده ملوك الدولة العلوية الشريفة من أجل لم شتاته وبناء وحدته، انطلاقاً من المولى محمد بن الشريف «عنترة زمانه» كما تسميه المصادر، و«رأس ملوك العلويين» كما يسميه المؤلف، الذي حارب في مختلف الجبهات، خصوصاً لما بويج بفاس سنة 1060هـ، وهنا يطلعنا الدكتور المريني على قصيدة نفيسة من إنشاء الشاعر والوزير القائد محمد بن يحيى أجانا وتضم تهنئة وتنوياً وتحذيراً ووصية²⁹، كما يطلعنا الكاتب على أن المولى محمد كانت له وصايا حربية تدل على أنه «فارس مجرب، وقائد محنك» حسبما يستنتج من القصائد التي كان ينشدها على لسانه شاعره الفقيه محمد ابن سودة المري الغرناطي الفاسي، وقد كان يتمنى أن يكون هو موحد البلاد ومحرر الثغور الذي يظهر في القرن الحادي عشر، بناء على أبيات شعرية أنشدها عبد الحق آخر ملوك بني مرين تبشر بظهور أمير بعد الألف: «يحيي رسوم الغرب بعد دروسها».. «ويفك أسر ثغوره ونجوده»³⁰، لذلك حارب بقوة واستماتة الإمارات المتفرقة من أجل وحدة المغرب وتجديد هيبته، كما حارب الأتراك بالجزائر. لكن هذا الأمر لن يتحقق إلا مع شقيقه السلطان مولاي رشيد، الملك الشهم الذي حقق الله له النصر في وقت قياسي، وهو صاحب الكتاب المنصورة التي: «قضت على الفتن الداخلية في هيجانها»، وهو «صاحب الفتوحات العظمى» خلد ذلك شعراء المرحلة في مقطعاتهم، ومنها قصيدة للشاعر أحمد

28 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 157.

29 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 159.

30 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1. ص. 161.

بن عبد العزيز العلوي، مؤلف كتاب «الأنوار الحسنية»³¹، وهو كتاب جد مفيد في بداية الدولة العلوية ونشأتها، وقد وصف زحف السلطان على مراكش واستيلاءه عليها.

وبتتبع المؤلف مسار السلطان مولاي رشيد، ندرك أروع المحطات التاريخية المشرقة التي سجلها هذا السلطان بمداد الفخر في صفحات خالدة من تاريخ توحيد المغرب ولم شتاته، وجمع أطرافه ورسم حدوده، فقد تمكن من القضاء على السملاليين بسوس وبالأطلس الصغير، وانبرى لمحاربة الدلايين بالأطلس المتوسط، والخضر غيلان ببلاد الهبط والغرب، والشيخ أعراس بالريف، ويذكر المؤلف أن المغاربة كانوا: «على أتم الاستعداد للانضواء تحت لواء مولاي رشيد، ليوحد صفوفهم، ويستأصل فوضى الانقسام والتقسيم بينهم»³²، فتمكن من أن يصبح ملكا للبلاد بدون منازع، وقد استشهد المؤلف بقصيدة الإمام أبي زيد عبد الرحمان بن عبد القادر الفاسي التي رددت صدى نصر السلطان الذي دانت له البلاد، لذلك اعتبرت مرحلة المولى الرشيد مرحلة أساسية حسب المؤلف: «في الانطلاق نحو وحدة الصف الداخلي، وتحرير قواعد الاحتلال الأجنبي للمغرب وسواحله»³³.

وهذا مدخل أساسي للحديث عن صفحات مشرقة جديدة من تاريخ المغرب بقيادة السلطان الأعظم المولى إسماعيل بن الشريف، فقد كانت منجزاته على قدر همته القوية، وفي مستوى فترة حكمه الممتدة الطويلة، حتى وصفه المؤلف بقوله: «أعظم سلاطين العلويين قوة، وأجلهم قدرا»، وحقيقة يعجز الباحثون عن تتبع كل ما سجله هذا السلطان من مآثر ومفاخر، لكن يكفينا هنا أن نذكر اعتمادا على كتاب «شعر الجهاد» بعض المحطات التاريخية الهامة التي ذكرها مؤرخ المملكة الدكتور عبد الحق المريني، فمن ذلك مثلا:

- القضاء على الثوار وإخضاع العصاة والمتمردين، وما أكثرهم، وقد أشار المؤلف إلى جملة منهم: الثائر أحمد بن عبد الله الدلائي، والخضر غيلان بناحية الهبط، وابن محرز بمراكش، والحران

31 - وعنوانه الكامل، الأنوار الحسنية في نسبة من يسجلها من الأشراف المحمدية، ومؤلفه هو أحمد بن محمد بن أحمد العلوي المدغري الحسني، كان حيا عام 1101هـ/1689م.

32 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج.1، ص. 163.

33 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج.1، ص. 164.

وهاشم وأحمد بجبل صاغرو، ومحمد العالم بتارودانت، لكن كما سجل المؤلف: «من سعادة المولى إسماعيل أنه ما ثار عليه ثائر، ولا نبغ عليه قائد إلا مكنه الله منه، وغلبه عليه»³⁴.

- فقد تمكن هذا السلطان الجليل من تحرير المهدية، وكانت تعرف باسم المعمورة وباسم ثغر الحلق، من يد الإسبان سنة 1092هـ/ 1681م، ثم حرر طنجة من يد إنجلترا سنة 1095هـ/ 1684م، ثم حرر العرائش من الإسبان عام 1101هـ/ 1689م، ثم أصيلة سنة 1102هـ/ 1691م، وقام بمجهودات محمودية من أجل تحرير سبتة ومليلية، وباديس والحسيمة وجزر النكور.

- قام بحملات إلى الصحراء كما وصف ذلك الشاعر عبد الله بن يوسف الواد نوني، بل تجاوز الجيش الإسماعيلي الصحراء إلى بلاد السودان، وهو ما أكدته الدكتور عبد الحق المريني في بحث آخر بقوله: «ولم يقف الجيش الإسماعيلي عند هذا الحد بل توجه إلى فتح "السودان" بعد أن ضم الصحراء إلى المغرب، ووصل إلى مدينة "تكزال" ودخلها بقوة البنادق والمدافع. وكان هدف المولى إسماعيل من غزو "السودان" هو ضم الأقاليم المحيطة بالمغرب تحت راية الإسلام، وجلب عدد كبير من أبناء "السودان" الأشداء واستخدامهم في وحدات الجيش لتعزيز صفوفه»³⁵. ويختم المؤلف حديثه عن السلطان أبي النصر بذكر حدود مملكته التي امتدت من تخوم السودان إلى بلاد مسكرة من ضواحي تلمسان.

إن فتنة الثلاثين سنة التي نسفت كثيرا من معالم المغرب الإسماعيلي، تم تداركها من طرف السلطان العالم، والسياسي المحنك سيدي محمد بن عبد الله، «الذي امتاز بحسن السياسة وكمال النجدة وجودة الرأي»³⁶، وسجل صفحات مشرقة في الميدانين السياسي والعسكري وفي الميدان العلمي أيضا، وسنكتفي هنا بذكر بعض المنجزات التي تطرق إليها المؤلف في كتاب «شعر الجهاد»:

- فمن ذلك مثلا تمكنه من القضاء على الفتن والفساد والحد من سلطة جيش العبيد.

34 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 166.

35 - د. عبد الحق المريني: «الجيش المغربي في عهد أبي النصر المولى إسماعيل قاهر الأعداء»، منشور في مجلة «دعوة الحق»، العدد 282، شعبان 1411هـ/ مارس 1991م.

35 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 167.

36 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 168.

- تفقده لأحوال البلاد وإصلاح شؤونها وتحصين ثغورها بالمعاقل والأبراج، وشحنها بالمدافع والبنب والكور، وقد استشهد المؤلف هنا بأشعار الشاعر الشهير أبي العباس أحمد بن الونان صاحب المنظومة الشهيرة «الشمقمقية»، وهو من ندماء السلطان، وقد ترجم له ترجمة موسعة في هامش الصفحة.

- قام بإحياء الأسطول المغربي، يقول المؤلف: «ووجه ... اهتمامه الخاص أيضا إلى الشؤون البحرية والمراكب الحربية»، وعرج على ذكر المراسي التي كانت تنشأ فيها السفن، وهي مرسى العدوتين ومرسى العرائش المحررة مستشهدا بأرجوزة المؤرخ محمد بن علي الدكالي في «إتحاف أشرف الملا» من مخطوطة الخزانة الحسنية بالرباط. وكان الهدف من إنشاء الأسطول المغربي رد الهجومات التي تشنها السفن الأوربية على المغرب، كما كان الهدف منها أيضا استعداد المغرب للحرب مع الإسبان. ويورد المؤلف هنا قصيدة رائعة للشاعر القروي محمد بن الطيب الغماري الذي وصف اندحار الأسطول الفرنسي في هجومه على العرائش.

- وقد استطاع السلطان سيدي محمد بن عبد الله أن يستعيد مازغان (الجديدة) من أيدي البرتغاليين سنة 1182هـ/1768م، حيث جهز قوة ضخمة لاستعادة هذا الميناء. وفتح البريجية سنة 1183هـ/1769 وأخرج النصارى منها وهدمها. وأسس مدينة الصويرة. كما كان يتابع عن كثب مقدار القوة النارية التي جمعها الإسبان في سبتة، فرأى أن يرجئ الاستيلاء عليها إلى وقت آخر.

- إن من أهم الأعمال الخالدة لهذا السلطان في صحائف العالم الإسلامي والإنساني تحرير الأسرى، فلم يسبق في التاريخ أن كان لسلطان أو ملك اهتمام كبير بفك الأسرى المسلمين بغض الطرف على الدولة الإسلامية التي ينتمون إليها، وهنا يذكرنا المؤلف بما أسداه السلطان من خدمات جليلة لفك أسرى المسلمين، وعن السفارات التي أرسلت من أجل هذا الهدف النبيل، ومنها سفارة برئاسة أحمد بن المهدي الغزال إلى مدريد، وقد ألف في ذلك رحلته الشهيرة: «نتيجة الاجتهاد في المهادة والجهاد»³⁷.

- وإن ما يلفت الانتباه في سيرة السلطان سيدي محمد بن عبد الله هي الهدايا والإعانات المالية الضخمة التي كان يرسلها إلى قادة الدول الإسلامية كما يقرر ذلك المؤلف، وكان الهدف منها

37 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 169.

مساعدتهم على مواجهة الحرب والدفاع عن دار الإسلام. ويمكن أن نستأنس هنا بما كتبه المؤرخ الضعيف الرباطي في كتابه «تاريخ الدولة السعيدة».

بالإضافة إلى هذه الأعمال الجليلة فقد تحدث المؤلف بنوع من التفصيل عن مجمل الثورات الداخلية التي اجتث جذورها السلطان سيدي محمد بن عبد الله، وأورد مقطعات شعرية مخلدة لذلك، ومنها على سبيل المثال: ثورة الثائر صالح المشهور بأكادير، وقد خلد مجريات قطع دابر أهل فتنتها الشاعر أحمد بن عبد الله الماسجيني.

ينهي المؤلف حديثه عن نهاية هذه المحطة التاريخية من حكم السلطان سيدي محمد بن عبد الله بالإشارة إلى ما عم البلاد من اضطراب الأحوال عقب وفاته رحمه الله، مع إشارات مختصرة من عهد السلطان مولاي اليزيد الذي كان شديد العزم على محاربة الإسبان وعلى تحرير سبتة، وجعل ذلك مدخلا للحديث عن الملك العالم السلطان مولاي سليمان، وقد خصه المؤلف بصفحات طويلة مقارنة بمن سبقه أزيد من عشرين صفحة في الفصل الأول فقط، ولعل ذلك مرتبط بغنى الأحداث التي شهدتها عصره، بالإضافة إلى كثرة الشعراء الذين خلدوا مآثره في مقطعاتهم الشعرية، ونظرا للتفاصيل الهامة التي ذكرها المؤلف في فترة هذا السلطان وما خلده من جلائل الأعمال نكتفي بذكر ما يلي:

- إعادة الوحدة للمغرب بعدما تفرق بعد وفاة سيدي محمد بن عبد الله.
- الحد من التدخل الأجنبي، ونهج سياسة الحفاظ على السيادة المغربية.
- محاربة الفتن الداخلية وتوحيد الكلمة وإرغام القبائل الثائرة للدخول تحت طاعته.
- حماية أهل الذمة الذين يعيشون تحت كنف إمارة المؤمنين.
- فشو العلم وازدهاره، وبروز كبار العلماء في عصره.
- ومن أشهر من سجل بشعره أحداث العصر السليمانى حسب ما يستفيد القارئ لكتاب «شعر الجهاد» نذكر:

- حمدون ابن الحاج السلمي، وهو شاعر البلاط السليمانى بلا منازع.

- الأديب الشاعر محمد ابن إدريس العمراوي.
- النسابة النقيب سليمان الحوات الشفشاوني.
- المؤرخ الشهير أبو القاسم الزياني.
- أما خلفه ابن أخيه السلطان مولاي عبد الرحمان بن هشام الذي اشتهر بالزهد والحزم والعزم حتى لقب باسم «إسماعيل الثاني»، فقد شهد المغرب في عصره اشتداد التكالب الأوروبي، خصوصا وأن المغرب أصبح جارا لفرنسا بعد احتلال الجزائر عام 1830م، ورغم كون عصره عصر معركة وحرب، أقصد معركة إيسلي وحرب تطوان، فإن هذا السلطان قد سجل ما خلد لأعماله في صفحات مشرقة من تاريخ المغرب، منها:
- الضرب بقوة على يد الثوار والقضاء على الفتن ومن أهمها ثورة الشراردة وفتنة الأودايا.
- استعداده الدائم للجهاد والمحافظة على وحدة البلاد.
- تقديم الدعم للمسلمين في الجزائر.
- تجاوز نكبة معركة إيسلي والوقوف في وجه التآمر الأوروبي.
- ازدهار الحركة الاقتصادية وتجديد العملة المغربية.
- ومن أشهر شعراء عصره الذين خلدوا بقصائدهم منجزاته:
- شاعره المؤرخ أبو عبد الله محمد أكنسوس.
- شاعر الدولة العلوية محمد بن إدريس الكبير العمراوي وقد أثنى عليه المؤلف.
- الفقيه القاضي محمد الطالب بن حمدون ابن الحاج.
- ويختتم مؤلف الكتاب حديثه عن المولى عبد الرحمان بالثناء عليه وذكر محاسنه، فهو: «الفارس المقدم، والمكافح المناضل، الذي جاهد في الله ما وسعه الجهاد، ولهذا دعي بعباد الرحمان»³⁸.

38 - عبد الحق المريني، شعر الجهاد، ج. 1، ص. 220.

خاتمة :

إن تتبع كل تفاصيل ما دونه الدكتور عبد الحق المريني في هذا الكتاب الموسوعة، والوقوف على كل أبوابه وفصوله، في شعر الفتوحات الخارجية، والمقاومة والدفاع عن الوطن ورد العدوان الخارجي وفي المديح والمولديات يحتاج إلى جهد مضاعف، وربما يسعفني الوقت للرجوع إليها مرة أخرى، لكن النتيجة التي يخرج بها القارئ المتفحص لكتاب «شعر الجهاد»، هو أن الشعر المغربي أصبح ضروريا لإعادة صياغة كتابة كثير من الأحداث التاريخية، وقد تجاوز مؤلف الكتاب بجدارة كبيرة النظرة الباخسة للشعر باعتباره صيغة فنية كلامية، ليبرهن بالدرس والتحليل والتركيب أن الشعر مستند من المستندات التي يمكن الاعتماد عليها في التمهيص للوقائع والأحداث، لذلك يمكن أن نضيف إلى وظيفة الشاعر الشاعر، والشاعر الملتزم، والشاعر الفاعل في المجتمع والمعبّر عنه، ووظيفة الشاعر المؤرخ، والشاعر الموثق، والشاعر الشاهد على العصر، وإذا كان أهم ما يكتبه المؤرخ هو شهادته عن عصره، فإن أبدع الشعر هو ما يسجل به الشاعر أحداث عصره، وبذلك يعلمنا مؤرخ المملكة اعتمادا على منهج القياس، تجاوز القاعدة الراسخة في الأذهان أعذب الشعر أكذبه، فنخرج بنتيجة أعذب الشعر في هذه الأطروحة شهادة الشاعر عن عصره وتأثيره في مجتمعه، وإبرازه لمحطات مشرقة من تاريخ الدولة المغربية الضاربة في أعماق التاريخ بكل مجد وفخر واعتزاز.

المديح السلطاني في عهد الملكين المجاهدين محمد الخامس والحسن الثاني من خلال تجربة الأديب الشاعر أبي بكر المريني

د. عزيز بويغف
الأكاديمية الجهوية للتربية والتكوين -
ورزازات

لا غرو أن الشعر المغربي ظل دائما حاملا للواء النضال، محتفيا بملاحم الوحدة والاستقلال والوفاء، ملبيا نداء الوطن، مُكبراً جهود أبنائه في سبيل العزة والتمكين والنصر، ميطا اللثام عن قضايا المصيرية التي ساهم النضال من أجلها في إرساء أسس الاستقلال، وبناء المغرب الحديث، ونشر العلم وتحرير الصحراء، هذا دون أن نغفل اهتمام هذا الشعر بالإشادة بجهود كل شرفاء الوطن في سبيل تحصين هذه المكتسبات والذود عنها.

إن شعر المديح السلطاني شعر لا يخرج من دائرة هذه المبادئ النبيلة السامقة، إنه شعر العواطف الجياشة، والمشاعر الصادقة، شعر الالتزام بقضايا الوطن الأساسية، قضايا الحرية والكرامة والانعقاد من نير الظلم والقهر، إنه شعر الإعجاب ببطولات السلاطين العلويين الذين لم يذخروا جهدا في سبيل نصرته الحق والدفاع عن الوطن والشعب، ولا غرو أن يتخذ الشعراء المغاربة من هذا الغرض بؤرة للكثير من قصائدهم، خاصة إذا علمنا أن لهذا الغرض ارتباطا وثيقا بشعر النضال والمقاومة والإخلاص للوطن وثوابته.

ولا يفوتنا في هذا الصدد، أن نشير إلى أن الشاعر أبا بكر المريني (1939م/ 1980م) كمعاصريه في ميدان النضال الوطني، قد جعل من المديح السلطاني ومن مفاخره، مرحلة للإشادة بصفحات الجهاد الأكبر الذي شهده الوطن على يد المغفور له الملك محمد الخامس، ووارث سره آنذاك المرحوم الحسن الثاني طيب الله ثراهما، فكان همُّ القصيدة عنده الاحتفاء بمظاهر التشييد والبناء والتنمية، والإشادة بتحرير بقية الأجزاء المغتصبة وضمها إلى حضن الوطن، وترسيخ قواعد التوافق والعدالة الاجتماعية بالبلاد، ونبذ الانغلاق والتطرف والاستئثار بالقرار، وهي قيم حافظ عليها جلالة الملك محمد السادس، فخر الملوك العلويين والمقتدي بمنهاجهم، وقد جعل الشاعر من هذه المفاخر العظيمة خير ملهم لشاعريته، وشاحذ لقريحته حتى ينبعث منها عذب الكلام.

لقد آمن أبو بكر بالذات والحدث والوطن، فجاءت تجربته جماعاً لهذه المقومات الخصبية التي ضخت الكثير من البهاء والجمال في عوالم الشعر المغربي الحديث، هذا وقد كان الشاعر يجعل من المناسبات والأعياد الوطنية، نافذة لإبراز موهبته الوقادة في نظم الشعر، والتعبير عن تجربته الإبداعية، وإماطة اللثام عن كثير من الإحساسات المفعمة بالوطنية والنضال والإخلاص لمقومات الأمة وركائزها.

وسنحاول في هذا المقال، تسليط الضوء على جملة من قصائد الشاعر التي نظمها في مناسبات وطنية، أبرزها عيد العرش المجيد، وعيد المسيرة الخضراء المظفرة، وغيرهما من المناسبات الوطنية التي رأى فيها الشاعر فرصة للتعبير عن تشبته بمقدسات الأمة، وركائزها، ومقوماتها التي قامت عليها منذ الأزل.

- من الاحتفاء بالذات والحدث إلى الاحتفاء بالوطن

إن المقصود بالمديح السلطاني ذاك المديح المقصود به قائد البلاد حامي حمى الملة والدين وضامن وحدة البلاد، والساھر على أمنها وسيادتها، وهذا النمط من الشعر غالباً ما يرتبط بمناسبة من المناسبات، أو بعيد من الأعياد الوطنية أو الدينية، وعلى رأسها عيد العرش الذي يحتفل به المغاربة كل سنة، بمناسبة تربع صاحب الجلالة على عرش أسلافه الميامين، والأعياد الوطنية الأخرى التي يخلد فيها المغاربة بعض الأحداث المجيدة كذكرى المسيرة الخضراء، وعيد الاستقلال، وذكرى ثورة

الملك والشعب، وغيرها من الملاحم الوطنية، والأعياد الدينية كعيد المولد النبوي وعيد الأضحى المبارك. لقد كان "عيد العرش في الأول تظاهرة وطنية، ثم صار بعد ذلك موسماً أدبياً تنجز فيه أعمال أدبية رائعة. فمن مقالات في تاريخ الدولة المغربية وعظمة العرش المغربي إلى خطب في تمجيد الوطنية وجمع المواطنين على خدمة الأهداف المقدسة التي ترمي إليها، بقصائد في مدح الجالس على العرش والتنويه بمشاريعه الإصلاحية، لاسيما في التعليم والنهوض بالفتاة المغربية وإنعاش الاقتصاد المغربي"¹.

كان الشعراء المغاربة يغتنمون هذه المناسبات للتعبير بلسان الشعب المغربي عن مدى تمسكهم بمقدساتهم الدينية والوطنية، لقد كانوا صلة الوصل بين العرش والشعب إذ كان شعرهم تجديدا للوفاء والإخلاص للعرش العلوي المجيد، وعلى رأس هؤلاء الشعراء المرحوم أبو بكر المريني، الذي نظم العديد من القصائد في المديح السلطاني، وجاء منجزه الشعري زاخرا بقضايا الأمة في عصره، منفتحا على القيم والمبادئ النبيلة التي عملت الحركة الوطنية على إذكائها في نفوس المغاربة، ومعها العرش العلوي المجيد الذي قدم صفحات مشرقة من النضال والكفاح من أجل عزة الوطن ونصرة قضايا العادلة، وفي هذا الإطار يقول الشاعر في قصيدة "قل مغربي أنا تعلقو بك الرتب" مادحا المغفور له الملك الحسن الثاني:

والقائد الحسن المغوار معتصم	بالله والعروة الوثقى كما يجب
يمشي ونور الهدى نبراس خطوته	والله ينصره لا المال والخطب
وعرشه الحب منسوج بأفئدة	وتاجه العدل لا الياقوت والذهب
ينبي لأمته الأجداد في ثقة	فليس يلحقها شعب ولو يثب
خاض المعامع في عز الشباب فها	بتة الطواغيت والأهوال والنوب
ولم يكن بطلا يدنو إلى القلب	وإنما حار في أوصافه القلب ²

1 - أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، عبد الله كنون، القاهرة، ط1، 1964م، ص 80.

2 - ديوان "شعب الخلود أنا"، أبو بكر المريني، مخطوط بخزانة الأستاذ الدكتور مصطفى الشليح، الرباط، ص 22.

إن الشاعر في هذا المقطع من القصيدة يرصع الشناء بالمدح، ويشيد بخصال الممدوح وشأئله، فيصف تمسكه بالعروة الوثقى واهتدائه بنور الله، فالله ينصره ويؤازره ويسدد خطاه لأنه رمز الحب والمجد، ولأن أمته تؤمن أنه قائدها ورمز وحدتها في أوقات الرخاء وأوقات الشدة. إن الشاعر وهو يمدح المغفور له الملك الحسن الثاني، يكشف عن ذاك التلاحم القوي بين العرش والشعب، وبين الأمة المغربية المجاهدة المقاومة والعرش العلوي المجيد الخالد، ذلك أن هذا العرش هو رمز تقدم الأمة وازدهارها.

وفي قصيدة "الله ولاك" من نفس الديوان يقول الشاعر:

يا خالدا في قلوب الشعب قاطبة	باد علاك ولهاج بك الأثر
أرسيت في كل قلب صرح مملكة	من المحبة تعيدا دونها الصور
وكيف لا ويوت الله ترفعها	في كل أرض وللخيرات تبتدر
والأرض فجرتها فانساب كوثرها	يغنى وفواح بها الزهر
هذي سجايك في الدنيا تعطرها	وكل ناد بها زاه ومفتخر
وليس في الأرض إلا مدح منهجكم	وقد تغنى به الرواة والوتر
قالوا من الرائد المقدام قلت لهم	هذا المفدى به الإسلام يفتخر
هذا حفيد رسول الله نعرفه	وإنه لبأمر الله يأتخر
هذا الذي حرر الصحرا بمعجزة	سل عنه يأتيك من أعدائه الخبر
العزم ديدنه، والحزم صهوته	واللين شيمته، والعفو والحر
والدين حجته، والقسط ضالته	والصدق منطقته، والخير منهمر
آراؤه حكم، أفكاره غرر	أفعاله عبـر، أقواله درر ³

إن هذه الأبيات ترسم ملحمة تاريخية وحضارية لأمة امتدت جذورها في عمق التاريخ، ملحمة أساسها تعلق الشاعر بعاهله تعلقا متينا راسخا، جعله يحبه حبا عظيما لا يساوره شك، ولعل مرد ذلك إلى أخلاق الممدوح التي تقوم على الوفاء والإخلاص والعزم والصدق، وهي أخلاق تزاد سموقا ورسوخا في كل مناسبة يظهر فيها السلطان.

3 - ديوان "شعب الخلود أنا"، أبو بكر المريني، مخطوط بخزانة الأستاذ الدكتور مصطفى الشليح، الرباط، ص 12.

إن السلطان جزء من الشعب، فهو يجسد قيم الأمة ومبادئها السامية، وهذه القيم والأخلاق النبيلة هي التي جعلت سلطان الدولة العلوية سلطانا خالدا، إنه خلود تاريخي حضاري يتجدد في كل لحظة، ويتم تشييد معالمه باستمرار عبر التلاحم الحاصل منذ الأزل بين العرش والشعب، العرش بعبقريته وحسن تدبيره، والشعب بوفائه وكفاحه من أجل صون الوطن ومقدساته. إن من "حسن حظ الشعر في هذه المرحلة - أنه وجد في حركة التحرير الوطني الآفاق الرحبة التي كان ينشدها، والمتنفس الذي أمدّه بالحياة وساعده على أن يجدد نفسه، ويتغلب على عوامل الفناء التي كانت تتهدده، وهكذا أتيح له أن ينفذ عنه غبار الخمول ويلعب دوره في المعركة التي خاضها الشعب والعرش، ويواكب مسيرة النضال التي التزم أن يعبئ نفسه من أجل إنجاحها، بعد أن ظل ردحا من الزمن في حالة استرخاء تشبه اليأس في ظل المناخ السياسي الذي كان يخنق الأنفاس... وانتفض رافضاً أن يختار موقف المتفرج على ما يدور حوله في الساحة من أحداث، وأن يظل متقوقعا حابسا نفسه في برجه الوهمي كأن شيئا مما يقيم هذا الوطن ويقعده لا يعنيه، ورأى الدرب أمامه طويلا فبدأ نشيدا وأهازيج تغذي روح الشعب وتلهب حماسه يتغنى بها في أعياده ويسمر بها في أفراحه ولياليه، ويسمع بها المحتلون فيدركون أن رحيلهم قريب وأن الغضب آت وغير بعيد"⁴.

لقد جعل الشاعر من كل المناسبات الوطنية والدينية محطة فارقة يعبر فيها عن مدى تشبته العميق بأهداب العرش العلوي الشريف، ومدى تقديره وتبجيله لقائد الأمة باني المغرب الحديث، المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه، وفي هذا الصدد يقول بمناسبة ذكرى المسيرة الخضراء المظفرة:

وقائدي الحسن الثاني الأمين على أمني وديني، شريف النفس والنسب
أعظم به قائدا، أكرم به نسبا أكبر به بطلا يسمو على الرتب⁵

لقد تكشف عبقرية الممدوح في هذه الأبيات من خلال رصد الشاعر لمعالم المسيرة الخضراء المظفرة التي وحدت البلاد، وربطت شمال الوطن بجنوبه. إنها إحدى الملاحم الوطنية التي يَبْنَتْ حكمة السلطان وسداد بصيرته، وهو القائد الهام الضامن للأمن الروحي للمغاربة قاطبة، لأنه سليل آل البيت الشرفاء الكرام.

4 - الشعر في مواكبة العرش، محمد الحلوي، مجلة دعوة الحق، مارس 1983م، ص 89.

5 - ديوان شعب الخلود أنا، مصدر سابق، ص 25.

إن التعبير بضمير المتكلم هنا، يعد من الصيغ العميقة في التعبير والتي تمكن الشاعر من إيصال الأفكار إلى المتلقي، وبالتالي تبليغ الرسالة الشعرية التي تقوم على الإمتاع أولاً ثم الإقناع ثانياً، فهذه الصيغة تجعل الشاعر بطبيعة الحال يمارس لعبته الفنية، لعبة الإيحاء بحقيقته هو، وحقيقة خطابه الشعري الذي هو كلام الذات، فتكون الغاية من ضمير المتكلم تقريب التعبير من النطق، والإيحاء إلى مباشرته لأجل الوصول إلى وجدان المتلقي.

ولم يفت الشاعر أيضاً استحضار تضحيات أب الأمة المغفور له الملك محمد الخامس طيب الله ثراه في سبيل الاستقلال والعزة والكرامة، ولذلك مدحه في قصيدة "الثورة الكبرى" بمناسبة ذكرى ثورة الملك والشعب، يقول:

وقاد ثورتنا عرش تربعه	محمد أحدي النور والخلل
لم يرتض العيش في ذل وفي رغد	ضدان لا يرتضيها سوى الخمل
وآثر النفي على أن يخون حمى	الأحرار فانفجر البركان بالبدل

إلى أن يقول:

والشعب للحسن الثاني يفوض أمـ	ـره ويسمو بفضله عن الزلل
ويملاً الأرض نبـله وحكمته	وعدله وجهاده مع الرسل
ويجعل المغرب الحديث ملـحمة	فردوسها أغنيات المجد والجدل ⁶

إن الشاعر وهو يجمع في هذه الأبيات بين مدح الملك محمد الخامس طيب الله ثراه، والمغفور له الملك الحسن الثاني، يحاول أن يربط الماضي بالحاضر ويؤكد استمرارية العرش العلوي في البناء والتشيد، وسير ملوكه على نهج أسلافهم الميامين، وهو نهج قوامه النبل والحكمة والعدل والجهد، وإذكاء روح الوطنية الصادقة بين الجماهير في شتى ربوع الوطن.

لقد كان مرام الشاعر في هذه المقاطع، إبراز مدى جسامه التضحيات التي قدمها العرش في سبيل الانعتاق من نير الظلم والقهر، فالمرحوم الملك محمد الخامس آثر النفي على أن يقبل حياة الذل

6 - المصدر نفسه، ص 27.

والمهانة، فهو إذن مثال حي للإيثار والتضحية ونكران الذات في سبيل بناء وطن حر أبي، لقد حرر الوطن وترك استكمال مسيرة البناء والتشييد خلفه آنذاك المغفور له الحسن الثاني. إن المقطع الثاني في القصيدة يشير من جديد إلى التحام العرش بالشعب، ذلك أن الشعب فوّض أمره لله أولاً، ثم لقائده الهام رمز الحكمة والثورة المجيدة وباني المغرب الحديث ومؤسس ملاحه الخالدة، حتى يأخذ بيده ويصل به إلى شط الأمان.

وفي قصيدة أخرى بعنوان "صورتان للثورة" من ديوان "ألا فاشهدي يا فاس" بنفس المناسبة، يقول الشاعر:

ثورة العلم والنماء يقود الـ	حسن الثاني جيلها اليوم ثائر
ثورة البعث والجهاد لها قمـ	نا وجرح الحنيفة اليوم غائر
فلتبارك يارب كل خطى مو	لاي سبط الرسول أول ثائر ⁷

إن الشاعر في هذا المقطع يربط معالم البناء والتشييد بشخصية الممدوح/ السلطان، وهو السلطان الذي اتخذ العدل والحلم والصفح أساساً للملكه ودعامة لحكمه، إنه ملجأ السائل، ومنبع الخير والعطاء، كيف لا وقد اجتمعت فيه كل الخصال الحميدة، والمثل العليا. لقد وعى الممدوح أن مسيرة البناء لا يمكن أن تتوقف فقط بدحر الاستعمار، ولكن الثورة يجب أن تستمر من خلال بناء الوطن، وضخ دماء جديدة في أوصاله، كل ذلك في تآزر تام بين قيادة حكيمة، وشعب وفي أبي مناضل. لقد استطاع الشاعر المغربي المادح أن يجعل من شعره "شعرا اجتماعيا يعبر عن عاطفة شعبية وفكرة قومية، ويمارس تجربته الأدباء أصحاب المبادئ والأفكار أكثر مما يمارسها الشعراء المداحون وطلاب المنافع والجوائز. وكان مما يتضمنه هذا الشعر الإشادة بمواقف الملك من النهضة وتشجيع الحركة الوطنية، وما قطعه المغرب في أيامه من مراحل نحو التقدم والازدهار في جميع الميادين، وبذلك يكون سجلا من سجلات التاريخ القومي والنهضة الحديثة، لاسيما وقد كان طابع هذا الشعر الصدق الذي تتفاعل معه العواطف مع الواقع، فيجسم التأثير الذي تحدثه مبادرات الملك

7 - ديوان "ألا فاشهدي يا فاس"، أبو بكر المريني، مخطوط بخزانة الأستاذ الدكتور مصطفى الشليخ، الرباط، ص 3.

وأعماله في نفوس الأفراد والجماعات من مختلف طبقات الشعب بدون أن يكون مغاليا في ذلك ولا مجاملا كما هو المعهود في أمداح الملوك وشعر المناسبات⁸.

لقد كانت الاحتفالات بأعياد الكفاح والنضال تعم شتى ربوع الوطن، وكانت الجماهير تحتشد لتعبر عن وفائها وإخلاصها للقيم النبيلة التي وجدت عليها الأجداد، كانت تؤمن بأن سبيل النهضة والبناء والتشييد لا يكون إلا بالتشبث بمبادئ الثورة والانبعاث والتجدد، ولذلك كانت تخرج عن بكرة أبيها لاستقبال ملهمها وقائدها الذي كان يجوب ربوع الوطن ليجدد اللقاء بشعبه، وليرسم صفحات مشرقة من تاريخ الأمة الحديث، وهذا ما حاول الشاعر التعبير عنه من خلال قصيدة عنوانها "مولاي أعلنت الجهاد"، يقول:

تتهيأ فاس على الزمان بالـ	حسن الثاني ابن الرسول أحمد
بالثائر المجاهد المتفاني	بالرائد المظفر المؤيد
عناية الرحمن تمشي حوله	ترعاه من كيف العدا والحسد
العرش عنده حماية الحمى	والتاج عنده أن يبلغ الشعب السهاد ⁹

لقد كان الممدوح/ السلطان يتفقد حال الشعب، ويقف على همومه وانشغالاته، ويحاول أن يتقرب منه ليطلع على أحواله عن قرب، فكانت زيارته لشتى ربوع الوطن كثيرة، خاصة مدينة فاس التي كانت وما تزال منبع الحضارة المغربية، ورمز العلم والعرفان، ومهد الثقافة والفكر، لقد كانت المدينة تتزين وتلبس أحلى حلة لاستقبال أب الأمة السلطان المجاهد المؤيد بنصر الله، المشمول بعنايته، المتفاني في الذود عن حماه، وخدمة شعبه بكل تفان وإخلاص.

وفي قصيدة أخرى بعنوان "لك المجد يسعى طائعا"، يواصل الشاعر الإشادة بخصال الممدوح وشماله، فهو رمز اليُمن والسعد والبركات، يسعى إليه المجد والسؤدد من كل جانب، ثم يشير إلى التلاحم الوثيق بين العرش والشعب، إذ كلما حل السلطان بمدينة من المدن إلا واستقبلته الجموع بالفرح والتفاؤل، فقدومه مقدم الخير والعطاء والنوال. إن الشاعر يوجز خصال الممدوح/ السلطان في الحزم والإخلاص والجود والعدل والإنصاف، يقول:

8 - أحاديث عن الأدب المغربي الحديث، عبد الله كنون، مرجع سابق، ص: 152/153.

9 - من قصيدة "مولاي أعلنت الجهاد"، ديوان "ألا فاشهدي يا فاس"، مصدر سابق، ص 6.

فيا ابن الهدى وابن النهى وابن طيب
وأهل المدينتين قد جئت فاسهم
وشعري يقدم التهاني لآلنا
فإن تسألوني عن فضائله أقل:
وفي الحق لا يخشى ملامة لائم
هو العدل والإنصاف إن جار باطل
لك المجد يسعى طائعا وهو كامل
فكل بكم مستبشر متفائل
ويطري حميدا مؤمنا لا يجامل
هي الحزم والإخلاص والجود واصل
هو العدل والإنصاف إن جار باطل

إلى أن يقول الشاعر:

فمرحى لفاس الفضائل كلها
ويا خير حاكم يقيم عدالة
هنيئا لكم بالمجد والعيد والعللا
هنيئا لبحر الجود ماله ساحل¹⁰
ومرحى لأهلها بمن هو فاضل
لأنت الذي تهفو إليك الشمايل

إن الإشارة إلى أهل فاس في القصيدة، هو إشارة إلى كل الشعب المغربي المتعلق بملكه الهام، إن الشاعر وهو ينظم القصائد يؤكد على عمق التجربة الشعرية، وعمق الإحساس. إن الشاعر لسان حال الجماعة، يصوغ أحاسيسها في قالب جمالي، إنه صلة الوصل بين الأمة المغربية وملكها المتفاني في خدمة الشعب وتحقيق أمانه، لقد تلاحم البعد الجمالي في القصيدة مع تجربة الشاعر حيث إن المتلقي يحس أمامها "بسحر التوحد وروعة الالتحام، فكل عنصر في العمل يؤدي دوره بنسبة لا تعلق ولا تنخفض بجانب العناصر الأخرى، فالمرء يؤخذ في القصيدة مثلا بسحر الحرف والصوت، وبسحر الكلمة وروعة الإيقاع وسحر شفافية الرمز.. هكذا في نفس اللحظة، من غير أن يشعر بنشاز لدور عنصر من العناصر"¹¹.

وفي سياق الاستمرار في تمجيد فضائل المدح وذكر خصاله وشمايله، يقول الشاعر في قصيدة "سبحان من ولاك فينا خليفة":

10 - المصدر نفسه، من قصيدة "لك المجد يسعى طائعا"، ص 8-9.
11 - الرؤية والفن في الشعر العربي الحديث، أحمد الطريسي أعراب، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، الدار البيضاء، 1987م، ص: 42.

على يدك الفتح المبين تحقق
حملت لواء النصر في ساحة الوغى
أحييت للإسلام عز شبابه
وأيديك الرحمن جل جلاله
وخصك بالرأي السديد فكنت قد
وأجری على لسانك الحكمة التي
ألبسك الطهر الذي فيك ثورة
وأكسبك الجود الحميد فضيلة
فأنت أمير المؤمنين وفرع دو
وأنت حكيم الحاكمين وخيرهم
فسبحان من ولاك فينا خليفة
هنيئاً بعيد التاج يا خير رائد
ودم سيدي للشعب للدين للحمى

ومن يدك الخير العميم تدفق
فجاءك نصر الله فتحاً محققاً
وقد فتح الباب الذي كان مغلقاً
فوحدت صفاً كان قبل مفرقاً
وة للذي رام العلا وتعشّقاً
تسوس بها شعباً عريقاً تفوقاً
فزدت تألقاً وزدنا تشوقاً
فأنفقت مال الله الله بالتقى
حة المصطفى أكرم بجدك مرتقى
مقاماً وأنت من إذا قال طبقاً
فكنت لنا أباً أبر وأرفعاً
تربع عرضاً في القلوب تألقاً
عزيزاً مفدىً فالنماء تحققاً¹²

إن الممدوح في رؤيا الشاعر هو إنسان لا يختلف عن باقي البشر، فهو من لحم ودم كما كل الناس، إلا أنه في نفس الآن يتميز عن باقي الناس، بكونه إنساناً مثالياً يمتلك مقومات تجعله يقود الأمة ويرشدها ويأخذ بيدها، إنه يستمد شرعية سلطانه أولاً من نسبه الشريف فهو سليل آل البيت، ثم من دهبائه وعبقريته التي تشكلت بما اكتسبه من معارف وعلوم، كل هذا أهله ليقود مسيرة الوحدة والبناء والتشييد، لينطلق من الجهاد الأصغر المتمثل في مقاومة الاستعمار وتحقيق الاستقلال، إلى الجهاد الأكبر الذي كان البناء ومحاربة الجهل والأمية وتحقيق العيش الكريم للناس أحد غاياته وأهدافه المنشودة.

وفي قصيدة "أنعم به عيداً" ينهي الشاعر القصيدة بمدح المغفور له الحسن الثاني يقول:

12- من قصيدة "سبحان من ولاك فينا خليفة"، ديوان "ألا فاشهدي يا فاس، مصدر سابق، ص: 11 / 12.

وعيد أمير المؤمنين مخلدا تربعه عرشا عظيم المآثر
يقيم على الدين الحنيف حضارة يدوي صداها من أعالي المنابر¹³

إن الإشارة إلى الخلود في البيت هو إشارة إلى استمرارية البناء والنماء، فالخلود هنا رمز للشرعية، شرعية الحكم المستمدة من النسب الشريف أولا ثم من حب الشعب والتحامه بأهداب العرش العلوي المجيد ثانيا. إن ارتباط العلويين بدينهم الحنيف ونسبهم لآل البيت جعلهم يؤسسون حضارة انتشر صداها في كل الأرجاء عبر التاريخ.

يقول الشاعر في قصيدة "سلام على جند الله" :

علينا أمير المؤمنين مؤيد من الله والتأييد كان له نصرا
يسير بنور الله في كل خطوة مباركة إننا نطيع له الأمر
به كم يفيض الخير في ربنا وكم نفيض له حبا ونحن به أدرى
وما حسن إلا محاسن فعله تجول كسحب في السما تمطر الخيرا
وما حسن إلا مواقف عزة وبذل وذكر في الدنى ينشر العطرا
ومن كان من آل الرسول محمد يكن قمرا مدى الورى أو يكن بدرا
فيا حسن الخير احتمى بك شعبنا فكنت الحمى نعم الحمى وكفيلا فخرا¹⁴

لقد توسل الشاعر بعناصر الطبيعة ليصف الممدوح/السلطان وليشيد بأياديه البيضاء على الناس (السحب، السماء، العطر، قمر..)، كما توسل أيضا بعناصر المبالغة ليعلي من شأنه، ثم ليبرز مدى تشبث الشعب به، فهو القدوة في الجد والحزم والصدق، وهو منبع الخير والعطاء. إن الشاعر حين يشبه فعال الممدوح بالسحب التي تمطر الخير، يحاول أن يوازي بين صورتين، صورة ممدوح يهب بلا حدود، وصورة سماء ملبدة بالغيوم تجود بالغيث النافع، أكثر من ذلك إن الشاعر يتجاوز صورة السحب ليصل إلى تشبيه الممدوح بالقمر الذي يهدي الناس ويخرجهم من غياهب الظلمات إلى النور، كل هذه الخصال يستمدّها الممدوح من نسبه الشريف وحرصه على خدمة الناس والأخذ بيد المحتاجين.

13 - المصدر نفسه، ص 13.

14 - المصدر نفسه، ص: 15.

والملاحظ أن الشاعر استثمر أيضا مستوى التكرار في القصيدة، وهو يشير إلى الممدوح باسمه في أكثر من مناسبة (وما حسن، فيا حسن)، وهو بذلك يؤكد على تميزه وفرداته، ذلك أنه النموذج والمثال والقدوة بالنسبة لشعبه، إنه حسن الخير الذي احتفى به الشعب، فهو الملاذ والحمى والفخر.

إن المديح السلطاني عند الشاعر أبي بكر لم يقتصر فقط على مدح المغفور له الحسن الثاني طيب الله ثراه، ولكنه كان يتفاعل أيضا مع أعياد الأسرة العلوية المجيدة، ومع مناسبات النجاح والزفاف، ففي قصيدة "هنيئا بالنجاح" يمدح الشاعر ولي العهد آنذاك الأمير الجليل سيدي محمد بمناسبة نجاحه، كما يمدح أيضا الأميرة الجليلة لالة حسناء بنفس المناسبة، قبل أن يختتم القصيدة بمدح المغفور له الحسن الثاني، يقول:

يا أخي في درب النجاح هنيئا	وهنيئا بفرحة الآباء
وهنيئا لسيدي بنجاح	ولمولاتي مريم الحسناء
سعد الشعب بالنجاح فمرحى	لولي العهد والأصدقاء
كيف لا وهو ابن خير مليك	وإمام، وسيد العظماء
وأب بار، فاضل وحنون	وكريم يسمو على الكرماء
يا أمير البلاد فاهنا بفوز	إنما الفوز مطمح الأذكاء ¹⁵

إن الشاعر يؤكد من جديد على التلاحم بين العرش والشعب، فنجاح ولي العهد ونجاح الأميرة لالة حسناء هو من نجاح الشعب قاطبة، ثم ينتقل الشاعر ليؤكد على أن هذا النجاح هو بفضل أب حنون، بار بأبنائه وشعبه، أب فاضل كريم جمع كل الخصال الحميدة.

لقد عرفت "قصائد العرشيات في عهد الاستقلال قفزة مهمة وفائقة، فقد اتسع أفق القول عند الشعراء، وأصبحت دواعي التسابق إلى المشاركة في هذه المحافل الأدبية - محافل تخليد الذكر بعيد العرش المجيد - كثيرة ومتنوعة ومشجعة على تفجير قرائح الشعر بسيول من القصائد الرنانة، خاصة وأن مجالات إلقاء وإسماع هذه القصائد أصبحت متنوعة ومتعددة، إذ لم تعد مقتصرة على التجمعات الشعبية المحدودة التي كانت تقام في أماكن ضيقة، خاضعة للحصول على ترخيص

15- من قصيدة "عرس مولاتي"، المصدر نفسه، ص: 20.

خاص من سلطات الحماية، بل صارت هذه الاحتفالات تقام في كل حي، وصارت التظاهرات الثقافية، المواكبة والموازية لهذه الاحتفالات الشعبية تقام في مختلف الأندية، وفي المؤسسات التعليمية، وصارت وسائل الإعلام المختلفة - من إذاعة وتلفزة وصحف ومجلات - تتنافس وتتسابق في جلب الشعراء وتقديم قصائدهم على قنواتها وأمواجها وصفحاتها¹⁶.

وفي إشارة أخرى عميقة إلى تماهي الشعب مع العرش في أفراحه، يصدق الشاعر بقصيدة جميلة بمناسبة زفاف إحدى الأميرات، يقول:

زغردي يا نساء فالיום عيد	عرس مولاتي والعريس سعيد
أشرق النور في البلاط بهيا	وتلأل فيه الصباح الجديد
وشدا العندليب أحلى الأغاني	أطرب الكون والصدى التغريد
وتغنت بلا بل بقصيد	ساحر اللحن كله تمجيد
عبرت أبهاء البلاط بمسك	وبخور وعنبر لا يبيد
وارتدت حلة ابتهاج وعيد	كيف لا والعرس المقام مجيد
كل ما في الطبيعة اليوم زاه	والعذارى في رقصهن تميد ¹⁷

لقد توسل الشاعر من جديد بالطبيعة وعوالمها اللامتناهية ليصور لنا الفرح الذي يعيشه الشعب بهذه المناسبة الغالية، فالبلابل تشدو أحلى الألحان، وأرجاء البلاط تفوح برائحة المسك والعنبر. إن القصيدة هنا تأخذ منحى رومانسيا من خلال استثمار الشاعر لعناصر الطبيعة ليعبر عما يخالجه من أحاسيس، فالطبيعة هي ملجأ الشاعر هنا، ومنها يستمد عناصر الصورة الشعرية، ليتعمق في المعنى وليجعله قريبا من المتلقي.

هذا ولم يقتصر الشاعر في مديحه السلطاني على السلاطين المغاربة، بل إنه مدح أيضا بعض ملوك وأمراء الخليج وعلى رأسهم الشيخ زايد بن سلطان أمير الإمارات، يقول:

16 - عيد العرش العلوي المجيد في الشعر المغربي الحديث، محمد خليل، دعوة الحق، عدد 368، جمادى 1 1423هـ / يوليو 2002م، ص: 25.

17 - من قصيدة "عرس مولاتي"، المصدر نفسه، ص: 20.

أهلا بزايد بن سلطان أخ العرب أهلا وسهلا بكم في مغرب العرب
أهلا أمير الإمارات التي اتحدت في عهدكم يا عزيز الاسم والنسب
أهلا بشيخ أبي ظبي وسيدها من ذكره كالشذى في الناس والكتب
طوبى لأرض بها حلت بشائركم فاليمن في أهلها يبقى مدى الحقب
المجد يسعى إليكم في مواكبه يعلي سموكم في أرفع الرتب¹⁸

لقد وظف الشاعر إذن قلمه في الوقوف على خصال وشمائل ممدوحيه من الأمراء والسلاطين، فترك لنا سيلا من القصائد وقفنا عندها وحاولنا استنباط أبرز مضامينها. إن الشاعر كان لا يفرغ إلى مدح السلطان إلا بعد أن يكون في الغالب قد مدح الرسول صلى الله عليه وسلم، إنه وهو يصدق بخصال النبي وشمائله يتبغي الربط بين هذا الأول باعتباره القدوة والمثال، وبين الممدوح/ السلطان باعتباره الفرع الطيب لذاك الأصل، يجمعهم النسب الشريف والتقوى والورع، فالثاني خليفة الأول في الأرض والسائر على خطاه، والمتمسك بسنته عليه أركى الصلاة والسلام.

لقد انتصبت "المناسبات الدينية والمهرجانات الوطنية في هذه الفترة منابر للشعر الوطني الذي كان يستغل هذه المناسبات لتغذية المشاعر والدعوة إلى الالتحام حول رمز وحدة البلاد وسيادتها. وعندما يلتقي الشعور الديني بالروح الوطنية يتولد منهما مزيج ليعلن انبعاث أمة كانت في رحم التاريخ أمة وأراد لها المحتل أن تبقى له ذيلا وتبيعا".¹⁹

. وعموما يمكن أن نقول إن القصائد التي اشتغلنا عليها، لا تخرج عن خصال اتصف بها الممدوح/ السلطان وتفرد بها وهي:

أ- حسن التدبر في الأمور ورجاحة الرأي والعقل، فالسلطان الحسن الثاني طيب الله ثراه، حباه الله عز وجل بالعلم الغزير النافع، فكان يجل العلماء ويعتني بهم ويقربهم إلى مجالسه، وكان يسوس شؤون البلاد والعباد بحكمة وتبصر، لقد كان كل همه التشييد والبناء والرفع من شأن الوطن.

18 - المصدر نفسه، ص: 23.

19 - الشعر في مواكبة العرش، محمد الحلوي، مجلة دعوة الحق، مرجع سابق، ص: 90.

ب- الشهامة وعزة النفس التي كانت ميزة يتصف بها الممدوح/ السلطان دون غيره، فكان يتفقد أحوال الرعية، مستفسرا ناصحا، وفي تفقده لأحوال العباد حزم وعزم وإقدام.

ج- تحليله بقيم العدل والإنصاف، وصيانة حقوق المظلومين، والحكم بالقسط، ثم اتصافه أيضا بالجلود والكرم ودمائة الأخلاق وحسن الطوية والعفة جريا على عادة أسلافه الميامين.

إن هذه المحاور الثلاثة، التي جعلها الشاعر مرتكزا لمدح السلطان الحسن الثاني ومعه المغفور له محمد الخامس ثم ولي العهد آنذاك والأميرات الجليلات، محاور معروفة في الشعر المغربي إذ لطالما ردها الشعراء المغاربة على أسماع ممدوحهم، وهي محاور ارتبطت أساسا بتاريخ الأسرة العلوية التي حكمت المغرب منذ قرون وما زال حكمها مستمرا خالدا. إن هذه المحاور تنهل من نسب الأسرة الحاكمة وهو نسب شريف، ثم من الورع والصلاح والإباء والإقدام وهي صفات ارتبطت بالسلطين العلويين.

عود على بدء:

لقد أماطت قصائد المديح السلطاني اللثام عن رؤية الشاعر أبي بكر لقضايا عصره وأمته، إنها رؤية عميقة تجاوزت مسألة النقل السطحي لهذه القضايا، فصاغت صياغة شعرية لتستحيل محطات زاهية للتعبير عن رؤية حاملة، جسدت إصرار الأمة على النهوض وإصرار الممدوح على توجيهها والأخذ بيدها. "إن الشاعر الرائي ينفلت من شرك الواقع وعوائق المادة لمعانقة المطلق عن طريق الكشف الشعري، فالرؤية الشعرية تربط بين المرئي واللامرئي، بين الواقع والحلم، إنها قوة انسلاخ، و طاقة كشف، وأداة معرفة تخيلية تعارض المعرفة العقلية والتجريبية"²⁰.

إن شاعرنا من الشعراء الذين لم ينصفهم التاريخ رغم ما أسدوه للثقافة والأدب المغربيين من عطاء وغزارة وحصافة رأي، لقد انماز عطاؤه بكثير من السلاسة والعذوبة، وكثير من الرصانة والتأني في قطف المعاني، إنه شاعر عميق اقتحم رياض القول الشعري فسافر في عوالمه التي لا تنتهي. إننا بصدد نفوذ الكثير من الغبار عن تجربة شعرية فذة عميقة غزيرة، تميزت بخصوصيتها وغناها.

20- الصورة الشعرية ونماذجها في إبداع أبي نواس، د. ساسين عساف، بيروت لبنان، ط1، 1982م، ص: 112.

ديوان العدد

أَرْضُ الْبُطُولَاتِ

رباعيات مهداة إلى الوطن الحبيب

الشاعر: عبد الكريم الوزاني

مَغْرِبِي مَهْدَ الْمُرُوءَاتِ الْحَسَانِ
يَا رُبُوعاً سُورَتْ بِالْعُنْفُوانِ
بِالسَّجَايَا وَالْمَزَايَا وَالْأَمَانِي
وَمُلُوكٍ تَوَجَّجُوا هَامَ الزَّمَانِ

يَا بِلَادِي أَرْضَ أَمْجَادِي وَأَجْدَادِي الْعِظَامِ
يَا طَرِيقَ النُّورِ وَالطُّهْرِ وَيَا حَبْلَ الْوِثَامِ
أَنْتِ قِيَارَةُ خُلْدٍ تَتَغَنَّى بِالسَّلَامِ
الصَّهِيلُ اللَّحْنُ وَالْخَيْلُ الْمَرَامِ

يَا دِيَاراً شَعْبُهَا لِلنَّصْرِ رَائِدُ
فِي رِكَابِ الْعَزْمِ مَوْعُودٌ وَوَاعِدُ
قَدْ حَبَاكَ اللَّهُ مِغْوَاراً وَقَائِدُ
نُسُكُ إِدْرِيسَ عَلَى هِمَّةٍ خَالِدُ

مِنْ طَرِيقِ الشَّمْسِ مِنْ أَرْضِ الْوَفَاءِ
عَفَّرَ الرَّمْلُ جِبَاهَ الشُّهَدَاءِ
فَإِذَا الْعَزْمُ أَكَالِيلُ ضِيَاءِ
صَفْوَةُ الْخَلْقِ وَطُهُرُ الْأَنْبِيَاءِ

يَا مَلِكِي مِنْ رَبِّ الْفَيْحَاءِ إِشْرَاقُهُ عَيْدِي
ضَمَخَتْ بِالْعِطْرِ قَلْبِي وَوَشَّاحِي وَبُرُودِي
إِنِّي يَا مَلِكُ لِلْأَفْرَاحِ قَدْ سَوَّيْتُ عُودِي
كَيْ يُضِيَّ الْعِيدَ صَوْتِي وَقَصِيدِي

فهرس العدد:

افتتاحية 7

مقالات العدد

- السياق التاريخي لثورة الملك والشعب المفضية إلى استقلال المغرب

ذ. أحمد الأزمي 11

- أصداء ثورة الملك والشعب في الساحة العربية

د. منير روكي 25

- حزب الإصلاح الوطني ونفي السلطان محمد الخامس: صور من التضحية والولاء الخالدين.

د. محمد الأندلسي 41

- خطاب محمد الخامس في محاميد الغزلان بين ترسيخ الوحدة الوطنية واستمرارية المقاومة

ذ. محمد امراني علوي 55

- ثورة الملك والشعب ومقومات النجاح

ذ. عبد العالي ملوك 67

- قراءة في مذكرات أبي بكر القادري عن الحركة الوطنية المغربية - الجزء الأول -

د. سعيد المغناوي 81

- مسألة التربية والتعليم في عهد السلطان المولى يوسف

د. عبد الرحيم الحسناوي 91

- محطات مشرقة في تاريخ المغرب من خلال كتاب «شعر الجهاد في الأدب المغربي» لمؤرخ المملكة
الدكتور عبد الحق المريني

د. أحمد إيشر خان 103

- المديح السلطاني في عهد الملكين المجاهدين محمد الخامس والحسن الثاني من خلال تجربة الأديب
الشاعر أبي بكر المريني

د. عزيز بويغف 129

ديوان العدد

أرض البطولات رباعيات مهداة إلى الوطن الحبيب

الشاعر: عبد الكريم الوزاني 147

فهرس الموضوعات 149

شروط النشر بالمجلة

تنشر المجلة الدراسات العلمية والبحوث المترجمة والمقالات الفكرية ومراجعات الكتب التي تتسم بالعمق والموضوعية، في مجالات العلوم الشرعية والفكر الإسلامي والحضارة وفق الشروط الآتية:

■ أن يكون البحث أصيلاً لم يسبق نشره، وألا يكون مستلماً من بحث جامعي، أو أرسل للنشر في مجلة أخرى.

■ أن تراعى قواعد البحث العلمي في توثيق المصادر والمراجع والإحالة عليها.

■ ألا يزيد عدد صفحات البحث أو المقال عن 18 صفحة من حجم: A4.

■ في حالة إرسال بحث مترجم يشترط إرسال نسخة من البحث الأصلي.

■ في حالة وجود وثائق وصور، يرجى أن تكون موثقة وبدقة جيدة.

■ تخضع المادة المرسلة للتحكيم العلمي، وتمنح المجلة مكافأة مالية عن كل بحث منشور، وفق النظام المعمول به في المجلة.

■ ترسل البحوث بالبريد إلى عنوان المجلة مطبوعة على الورق، وفي قرص مضغوط، أو على البريد الإلكتروني، مع نبذة تعريفية عن صاحب البحث وعنوانه الكامل ورقم هاتفه.

■ البريد الإلكتروني هو : alamihamid49@gmail.com

■ ترتب مواد المجلة وفق اعتبارات فنية محضة لا علاقة لها بقيمة البحث أو مكانة صاحبه.

■ الأبحاث التي ترسل إلى المجلة لا تعاد إلى أصحابها نشرت أم لم تنشر، كما أن المجلة غير ملزمة بإيضاح أسباب عدم النشر.

■ ما تنشره المجلة يعبر عن وجهة نظر كاتبه، ولا يمثل بالضرورة وجهة نظر المجلة أو الجهة التي تصدرها.

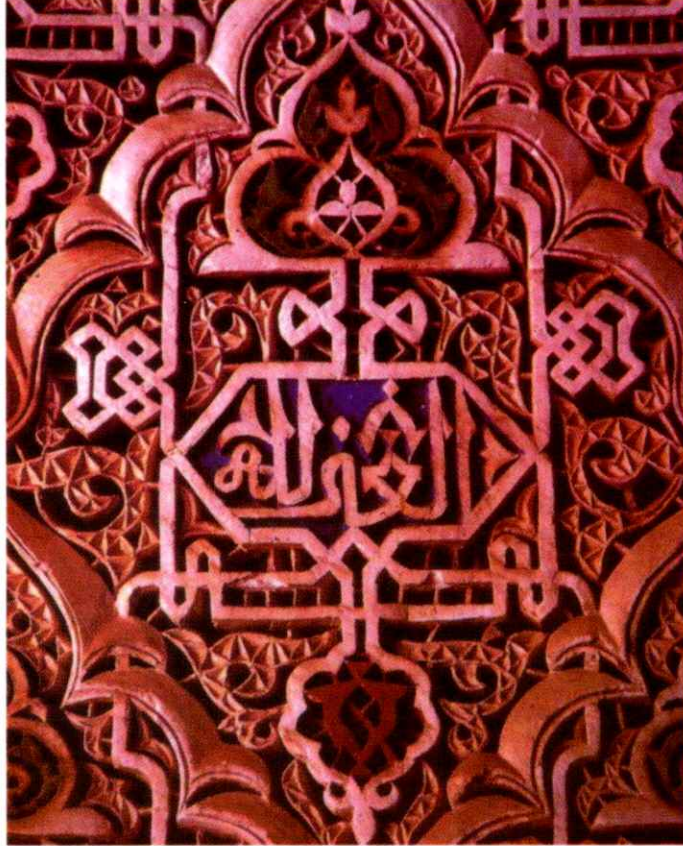
محاوَر الأعداد المقبلة:

تدعو إدارة مجلة دعوة الحق السادة الباحثين إلى الكتابة في أحد المحاوَر الآتية:

1 - جهود سلاطين المغرب في محاربة الأوبئة والجوائح.

2 - فقه العمران في المذهب المالكي.





دعوة الحق

مجلة شهرية تعنى بالدراسات الإسلامية وشؤون الثقافة والعكر
تصدرها وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية
بالمملكة المغربية